القرآن والسنة

١

القراءات

في نظر المستشرقين والملحدين

تأليف

الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي

رئيس قسم القراءات بكلية القرآن الكريم

بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة





القراءات في نظر المستشرقين والملحدين

تأليف

الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي

رئيس قسم القراءات بكلية القرآن الكريم

بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة



تقديم

للدكتور عبد العزيز بن عبد الفتاح قارىء

عميد كلية القرآن الكريم والدراسات الاسلامية
بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما ؛ لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا .

والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

فقد قال الله سبحانه وتعالى فى محكم قرآنه : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ، فأخبر بحفظه لهذا الكتاب العزيز ، فهو آمن من أن يعتريه ما اعترى الكتب قبله من التحريف ، والتبديل ، والزيادة والنقصان ، فقد كانت الكتب السماوية السابقة موكولة الى حفظ المخلوقين ، فلم يحفظوها ، وأما القرآن فتكفل الخالق المتكلم به سبحانه وتعالى بحفظه ، فلا تحريف ولا تغيير ، بل هو ثابت بنصه كما أنزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما كتب فى اللخاف والعظام والعسب بين يديه ، وكما سطره الصحابة الكرام بين الدفتين فى الجمعتين ، فهو محفوظ بنصه وبقراءاته ، ورسمه ، وفواصله ، وغنه ، ومده ، وطريقة النطق به ، وليس هذا لغير القرآن .

وأصل منشأ القراءات القرآنية ، أن الله عز وجل أنزل القرآن على سبعة أحرف ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الحديث المتواتر : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف » وفي لفظ « فبأيها قرأوا فقد أصابوا » أي أصابوا القرآن ، ومعنى سبعة أحرف : أي سبعة أوجه يقرأ بها ، وليس كل القرآن أنزل على سبعة أوجه ، بل بعضه على ستة ، وبعضه على خمسة ، أو أربعة ، أو ثلاثة ، وبعضه على وجهين ، وأكثره أنزل على وجه واحد ، وهو محل الاتفاق ·

وكل وجه من هذه الأوجه قرآن ، يحمل زيادة في المعنى ، كما يحمل زيادة في المبنى ، فما بين هذه الأوجه من الاختلاف ، هو من باب التنوع لا من باب التناقض أو التضاد ·

وهذا من بديع اعجاز هذا القرآن العظيم ، ومن درس (توجيه القراءات) وتأمل في أسرارها يدرك ذلك ، والأمثلة عليه ستجدها في هذا الكتاب · لكن أنى لأفهام الافرنج مهما (استشرقوا) أن تفقه ذلك ، خاصة اذا كانت من نوع (جولد زيهر) ، الذي كان يتعمد الطعن مع سعة اطلاعه ، ويكابر مع وضوح الحق ··

ولما ترجم كتابه (مذاهب التفسير الاسلامي) وجدناه مصدرا بالطعن في نص القرآن بأنه كثير الاضطراب ، وانما أوقعه في هذا المنزلق الخطير عدم فهمه للقراءات ، أو مكابرته واغماضه عن حقيقتها ، وتجاهله لأسرارها ·

لذا كان لا بد بعد أن ترجم الكتاب ونشر بين قراء العربية من أن يرد عليه في حينه ، خاصة وأن كثيرا من المثقفين مغرورون معجبون بأمثال (جولد زيهر) من الفرنجة ، فتجد أنفاسهم الغربية في أفكار هؤلاء ومصنفاتهم ، وكيف بهم اذا خاضوا في مسلك وعر مثل القراءات ، التي لا يعقلها الا العالمون ، وقد كان الامام مالك امام دار الهجرة مع جلالة قدره في العلم اذا سئل عنها أحال السائل

الى نافع القارىء امام دار الهجرة فى القراءة قائلا : كل علم يسأل عنه أهله ·

وليس كل ما خاض فيه الفرنجة من علوم الاسلام يستحق عناء الرد · لكن لأن مجال القراءات قد يخفى على غير المتخصصين ، كان من المستحسن ازالة اللبس والابهام ··

ومن خير من كتب فى هذا الموضوع أستاذنا الشيخ العلامة عبد الفتاح القاضى ، رئيس قسم القراءات بكلية القرآن الكريم بالمدينة المنورة ، ورئيس لجنة تصحيح المصاحف بمصر ، وهو من علماء هذا الفن المحققين ، وقد تخرج جيل من أهل القرآن على يديه · وانتشرت مؤلفاته فى القراءات وعلوم القرآن ، واستفاد منها طلاب العلم ··

وقد ناقش فضيلته (المستشرق جولد زيهر) بأسلوب علمى قوى واضح ، مبرزا حقائق القراءات القرآنية وأسرارها بروح العالم المحقق ، مبينا أن لكل قراءة معنى · وأن تلك الأوجه من المعانى غير متضاربة بل هى من نوع التنوع المحمود فى البلاغة ··

صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة أنه قال شارحا هذه المسألة : « ان قلت عزيزا حكيما غفورا رحيما فالله كذلك ، ما لم تختم آية رحمة بعذاب أو آية عذاب برحمة » ، أى : كما أنه لا تضارب فى تعدد الأوصاف لموصوف واحد متصف بها جميعا ، فأنت تقول واصفا الرب سبحانه : عزيز ، وتقول : حكيم ، وتقول : غفور رحيم ، ولا يلزم من ذلك التضارب ··

فكذلك الأوجه المقروءة المتعددة فى القرآن ، لا يلزم من تعددها تضاربها ، ولا تناقضها ، بل هى من باب التنوع ، وانما كان يلزم التناقض والتضارب لو جاء ذكر المغفرة فى مجال العذاب ، أو العذاب فى مجال المغفرة ·

قال ابن مسعود : انما هو كقول أحدكم هلم وتعال وأقبل ·

نسأل الله تعالى أن يجزل المثوبة لأستاذنا الشيخ عبد الفتاح القاضى ، فاننا لا نشك فى أن قراء هذا الكتاب سيستفيدون منه فوائد جليلة ، تزيل اللبس ، وتكشف الغوامض ·

كتبه

أبو عاصم عبد العزيز قارىء

فى ٢٧ من ربيع الآخر عام ١٤٠٢ هـ

مقدمة الكتاب

نحمد الله تعالى على ما أولانا من فضل ، ومنه سبحانه نستمد العون ، ونستلهم الرشد ، ونصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، النبي العربي القرشي ، منبع كل خير ، ومصدر كل بر ، وعلى آله وصحبه ، وعلى كل من ترسم خطاهم إلى يوم الدين .

وبعد

فقد رغب إلىّ السيد صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة الدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف وشئون الأزهر — أثناء توليه منصب وكيل الأزهر — أن أطلع على كتاب (مذاهب التفسير الإسلامى) الذى ألفه المستشرق (جولد زيهر) وترجمه الدكتور على حسن عبد القادر والمغفور له الدكتور عبد الحليم النجار فوجدت مقدمة الكتاب تتعلق بالقراءات ، فرأيت أن أتقصاها ، وأمعن النظر فيها فإن كانت مشتملة على حقائق علمية ثابتة شددنا أزرها ، وعملنا جهد الطاقة على إذاعتها وترويجها ، لينتفع بها الدارسون لهذا العلم ، الراغبون

فى التزود من الثقافات القرآنية ، وإن كانت متضمنة غير ذلك نقدناها ، ونقضنا ما فيها ، وكشفنا زيفها ، وأبنّا الحق فيما تناولته من مسائل ونشرنا ذلك بين الجمهور ، حتى لايغتر بها البسطاء ، وذوو الأهواء ، الذين يَجْرون وراء كل خادع ، ويسيرون خلف كل مجدد ولو كان تجديده مروقا من الدين ، وخروجا على إجماع المسلمين . وقد ألقيت على هذه المقدمة نظرة فاحصة عميقة ، وتأملتها تأمل المنصف الذى يتلمس الحقيقة أنى يجدها ، ويبغى الصواب حيث يصل إليه ، غير متعصب ولامتحامل ، يحدونى فى ذلك الإخلاص لكتاب الله تعالى ، والذود عن حوزته، والرغبة الصادقة فى بيان الحقائق ناصعة مضيئة، وتنقيتها من غبار الشبه الذى علق بها ، فشوه جمالها ، وأضعف — عند غير المنصفين — من مكانتها .

وقد تبين لى — بعد البحث الهادئ ، والتمحيص المتريث — أن (جولدزيهر) فى بحثه فى القراءات قد حاد عن الجادة ، وتنكب الصراط السوى ، وجانبه التوفيق فيما كُتب ، وتورط فى أخطاء ما كان لمثله — وهو واسع الاطلاع كما يصفه بعض من ترجم له — أن ينزلق فيها .

ومنهجنا فى البحث أن نتتبع كتاب (جولد زيهر) وننقله بنصه ، ثم نأخذ فى مناقشته فيما كتب ، ونقيم من براهين الحق ما يدمغ باطله ويزهقه .

والله الموفق والهادى إلى أقوم سبيل .

خادم القرآن الكريم والعلم

عبد الفتاح القاضى

ما كتبه جولد زيهر فى القراءات

قال فى صفحة (٤) :

فلا يوجد كتاب تشريع اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل موحى به يقدم نصه فى أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب ، وعدم الثبات كما نجد فى نص القرآن .

والذى يعنينا من هذه الفقرة ما دلت عليه من أن النص القرآنى اعتراه من الاضطراب ، وعدم الثبات ما لم يعتر نص كتاب سماوى قبله .

ونقول له :

إن النص القرآنى لم يعتره — ومحال أن يعتريه اضطراب وأن ينزل بساحته قلق لأن معنى الاضطراب والقلق وعدم الثبات فى النص القرآنى أن يقرأ النص على وجوه مختلفة ، وصور متعددة ، ويكون بين هذه الصور تناقض فى المعنى وتعارض فى المراد ، وتضارب فى الهدف ، ولا يعرف الموحى به من هذه الصور من غيره ،

ولا الثابت منها من غير الثابت ، وهذا منفى عن القرآن قطعاً ، فإن الروايات المختلفة ، والوجوه المتعددة التى تواردت على النص القرآنى لا تناقض فيها ولا تعارض فى معانيها ، ولا تضارب فى المراد منها ، بل كلها يظاهر بعضها بعضاً ، ويشهد بعضها لبعض .

وإنك لو سبرت القراءات — متواترها ومشهورها وصحيحها — لوجدت أن الاختلاف بينها لا يعدو نوعين :

الأول : أن تختلف القراءتان فى اللفظ وتتفقا فى المعنى ، ومن هذا النوع ما يرجع إلى اختلاف اللغات . كقراءتى :

(ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ)(١) .

بالصاد والسين .

وقراءتى :

(وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ)(٢) .

بضم الباء وسكون الخاء ، وبفتح الباء والخاء .

---

(١) آية ٦ من سورة الفاتحة .

(٢) آية ٣٧ من سورة النساء .

وقراءتى :

(يَحْسِبُ)[1] .

بفتح السين وكسرها .

وقراءتى :

(مرفقاً)[2] .

بكسر الميم وفتح الفاء ، وبفتح الميم وكسر الفاء .

والحكمة فى إنزال هذا النوع فى القرآن تيسير تلاوته على ذوى اللغات المختلفة .

ومن هذا النوع مالا تختلف فيه اللغات ، وإنما هما وجهان ، أو هى وجوه تجرى فى فصيح الكلام .. نحو :

(نَزلَ بِهِ ٱلرُّوح ٱلْأَمِين)[3] .

بتخفيف الزاى من نزل ورفع الحاء من الروح والنون من الأمين ، وبتشديد الزاي من نزل ونصب الحاء من الروح والنون من الأمين .

---

(١) آية ٣ من سورة الهمزة .

(٢) آية ١٦ من سورة الكهف .

(٣) آية ١٩٣ من سورة الشعراء .

ونحو :

(أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ)[١] .

قرئ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ، وقرئ بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين .

ونحو :

(لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا)[٢] .

قرئ بتاء الخطاب ، وياء الغيبة .

ونحو :

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ)[٣] .

قرئ بخفض ميم (وقوم) ونصبها .

وهذا النوع وارد على سنة العرب من صرف عنايتها إلى المعانى ، ونظرها إلى الألفاظ على أنها وسائل ، فلا ترى بأساً فى إيراد اللفظ على وجهين أو وجوه ما دام المعنى الذى يُقْصَدُ بالخطاب مستقيما ،

(١) آية ١٨ من سورة الزخرف .
(٢) آية ٧٠ من سورة يس .
(٣) آية ٤٦ من سورة الذاريات .

وفى هذا توسعة على القارئ ، بعدم قصره فى نطاق حرف واحد ، ولا سيما إذا كان محجوراً عليه أن يغير الكلمة من القرآن ، ويحيد بها عن وجهها المسموع .

الثانى : أن تختلف القراءتان فى اللفظ والمعنى معاً مع صحة المعنيين كليهما ، فلا يكونان متناقضين ولا متعارضين ، بل يمكن اجتماعهما فى شىء واحد .

نحو :

(وَانْظُرْ إِلى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً)[1] .

قرئ ننشزها بالزاى والمعنى : نضم بعضها إلى بعض حتى تلتئم وتجتمع ، وقرئ بالراء والمعنى : نحييها بعد الموت للحساب .

والمعنيان مختلفان ، ولكنهما لا يتناقضان ولا يتنافيان بل يلتقيان ، لأن الله تعالى إذا أراد بعث الخلائق ضم عظامهم بعضها إلى بعض حتى تجتمع ثم يحييها للجزاء .

---

(١) آية ٢٥٩ من سورة البقرة .

ونحو :

(إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ)[١] .

قرىء بتشديد الصاد فى الكلمتين والأصل المتصدقين والمتصدقات ثم قلبت التاء صاداً وأدغمت فى الصاد بعدها ، والمعنى : الذين يخرجون صدقات أموالهم سواء كانت مفروضة أم مندوبة . . وقرىء بتخفيف الصاد فى الكلمتين ، والمعنى : الذين يذعنون للدين ، وتمتلىء نفوسهم بالانقياد له ، والاستسلام لأحكامه . .

فالمعنيان مختلفان بيد أنهما يجتمعان فى العبد المؤمن المتصدق .

ونحو :

(فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا)[٢] .

قرىء بحذف الألف بعد الزاى مع تشديد اللام والمعنى أوقعهما فى الزلة — أى الخطيئة . . وقرىء بإثبات الألف بعد الزاى مع تخفيف اللام والمعنى نحاهما وأبعدهما عن الجنة .

فالمعنيان متغايران — كما ترى — ولكنهما يجتمعان ، فإن

---

(١) آية ١٨ من سورة الحديد .

(٢) آية ٣٦ من سورة البقرة .

إيقاعهما فى الزلة اقتضى تنحيتهما عن الجنة ، فهناك تلازم بين المعنيين ، فالوقوع فى الزلة ملزوم والتنحى عن الجنة لازم له . أو الوقوع فى الزلة سبب ، والإبعاد عن الجنة مسبب عنه .

وحكمة هذا النوع من الاختلاف أن تكون الآية بمنزلة آيتين وردتا لإفادة المعنيين جميعاً .

أما اختلاف القراءتين فى اللفظ والمعنى مع تضاد المعنيين ، وتضارب المدفين ، فلا أثر له فى القرآن الكريم ومحال أن يكون فيه :

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَفاً كَثِيراً)[١] .

قال الإمام أبو محمد بن قتيبة فى مشكل القرآن : « الاختلاف نوعان . . اختلاف تغاير . . واختلاف تضاد .

فاختلاف التضاد لا يجوز ، ولست بواجده ـ بحمد الله ـ فى كتاب الله تعالى . .

واختلاف التغاير جائز . . ثم ضرب لهذا النوع من الاختلاف

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء .

أمثلة من الآيات ، وبرهن على جوازه بأن كلا من المعنيين صحيح ، وأن كل قراءة بمنزلة آية مستقلة . . ولا جرم أن يكون هذا الاختلاف فنا من فنون الإيجاز الذى يسلكه القرآن فى إرشاده وتعليمه » .

وعلى الجملة : فاختلاف القراءات إنما هو اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تعارض وتضارب، فإن هذا لا يتصور أن يكون فى كلام العقلاء من البشر فضلا عن أن يكون فى كلام رب العالمين .. وإذا كان الأمر كذلك استحال على النص القرآنى أن يعتوره قلق ، أو ينزل بساحته اضطراب .

ثم إن الروايات المعتمدة التى تُلِىَ بها النص القرآنى قد ثبتت بطريق التواتر الذى لا شك فيه ، وقُطِع بنسبتها إلى مصدرها الأصلى وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، بتلقى الصحابة لها مشافهة عنه صلى الله عليه وسلم ، ونَقَلَها عن الصحابة سماعا التابعون ، ونقَلَها عن التابعين أتباعهم ... وهكذا إلى أن وصلت إلينا ، فلا مجال إذاً لقلق النص واضطرابه .

وقال فى صفحة (٥) :

وفى جميع الشوط القديم للتاريخ الإسلامى لم يحرز الميـل إلى التوحيد العقدى للنص إلا انتصارات طفيفة .

وأقول : تفيد هذه الفقرة أن طائفة من المسلمين كانت تميل إلى توحيد النص القرآنى ، ولـكن ميلها إلى هذا التوحيد لم يظفر إلا بتأييد ضئيل ، وهذه دعوى لا دليل عليها ، بل هناك من الأدلة ما ينقضها ، ويأتى عليها من أساسها . . إذ لم يثبت أن أحداً ما من المسلمين جال بخاطره ، أو حدثته نفسه بتوحيد نصوص القرآن الـكريم ، ولو وقع لنقل إلينا لتوفر الدواعى على نقله ، وأما ما قام به الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه من كتابة للمصاحف ، وإرسالها إلى الأمصار الإسلامية وحمل الناس على ما فيها فليس الباعث عليه الميل إلى توحيد نص القرآن ، وإنما الحامل عليه الرغبة فى جمع المسلمين على القراءات الثابتة ، عن رسول الله ﷺ بطريق التواتر دون ما عداها من القراءات التى نزلت أولا للتيسير على الأمة ، ثم نسخت بالعرضة الأخيرة ، وكان يقرؤها من لم يبلغه نسخها ، ولقد كان خلو المصاحف من النقط والشـكل محققا لرغبة الخليفة

عثمان ، ومساعدا له على جمع الناس على القراءات المتواترة دون المنسوخة والشاذة .

وليس أدل على ما قلناه أن هذه المصاحف التى أمر الخليفة عثمان بكتابتها كان بينها اختلاف فى مواضع كثيرة تبعا لاختلاف القراءات فى هذه المواضع ، كما هو مدون فى كتب القراءات ورسم القرآن .

فلو كان قصد عثمان توحيد النص القرآنى لكتبت المصاحف بصورة واحدة ، ولم يكن بينها اختلاف ما ، فكتابتها على هذه الصور المختلفة ، والكيفيات المتعددة دليل واضح على أن عثمان لم يعمد إلى توحيد النص ، وإنما عمد إلى حمل الناس على ما ثبت من القراءات بطريق التواتر دون ما لم يكن كذلك .

وقال فى صفحة (٨) :

وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربى الذى يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة ، تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته ، وعدد تلك النقاط ، بل كذلك فى حالة تساوى المقادير الصوتية يدعو اختلاف الحركات

الذى لا يوجد فى الكتابة العربية الأصلية ما يحدده إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات فى المحصول الموحد الغالب من الحروف الصامتة كانا هما السبب الأول فى نشأة حركة اختلاف القراءات، فى نص لم يكن منقوطا أصلا أو لم تتحر الدقة فى نقطه أو تحريكه.

ثم ضرب خمسة أمثلة للقراءات المختلفة التى نشأت من خلو المصاحف من النقط وهى :

١ — آية ٤٨ من سورة الأعراف :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

قرأها بعضهم بالثاء الفوقية المثلثة بدلا من الباء التحتية الموحدة.

٢ — آية ٥٧ من سورة الأعراف :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ ﴾

قرئ بالنون الفوقية الموحدة بدلا من الباء التحتية الموحدة.

٣ — آية ١١٤ من سورة التوبة :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾

قرأها بعضهم أباه بفتح الهمزة والباء الموحدة بدلا من كسر الهمزة والياء المثناة التحتية المشددة .

٤ — آية ٩٤ من سورة النساء :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾

قرأ جماعة من ثقات القراء « فتثبتوا » والهيكل المرسوم « فىىىو » يحتمل الوجهين .

ثم قال : وعلى كل حال لا تسبب هذه الاختلافات وما شابهها فرقا من جهة المعنى العام ، ولا من جهة الاستعمال الفقهى .

٥ — آية ٥٤ من سورة البقرة :

﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾

وهذا فى الواقع ينطبق على ما جاء فى سفر الخروج فصل ٣٢ فصلة ٢٧ الذى هو مصدر الكلمات القرآنية .

وربما كان مفسرون قدماء معتد بهم — وذكر قتادة البصرى

المتوفى ١١٧ هجرية حجة على ذلك — قد وجدوا هذا الأمر بقتل أنفسهم ، أو بقتل الآثمين منهم أمراً شديد القسوة ، وغير متناسب مع الخطيئة ، فآثروا تحلية الحرف الرابع من هيكل الحروف الصامتة « فاقتلوا أنفسكم » بنقطتين من أسفل بدل التاء المثناة من أعلى ، فقرأوا « فأقيلوا أنفسكم » بمعنى حققوا الرجوع عما فعلتم — أى بالندم على الخطيئة المقترفة ، وهـذا المثال يدل فعلا على أن ملاحظات موضوعية قد شاركت فى سبب اختلاف القراءة خلافاً للأمثلة السابقة التى نشأ الاختلاف فيها من مجرد ملابسات فنية ترجع إلى الرسم .

ثم قال : ويبدو أن نفس هذه الظاهرة توجد فى آيتى ٨ ، ٩ من سورة الفتح . وهنا يخاطب الله محمداً صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

فبدلا من وتعزروه بالراء المهملة الذى معناه وتساعدوه ، قرأ بعضهم وتعززوه بالزاى المعجمة بمعنى وتعظموه .

وأنا لا أستبعد أن يكون من دواعي تغيير النص على هذا الوجه خشية تصور أن الله ينتظر من الناس مساعدة أو معونة .

نعم . . ورد فى القرآن أحياناً معنى أن الله سينصر من ينصره : آية ٤٠ من سورة الحج ، وآية ١٧ من سورة محمد ، وآية ٨ من سورة الحشر .

ثم ذكر أمثلة للقراءات الناشئة من خلو المصاحف من الشكل والحركات فذكر آية ٨ من سورة الحجر :

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾

ثم قال : فتبعاً لاختلاف القراء فى قراءة اللفظ الدال على نزول الملائكة هل هو (نُنَزِّلُ ، أو تَنَزَّلُ ، أو تُنْزَلُ) كل هذه القراءات ممثلة فى الأقاليم المختلفة تفيد المعنى كل كلمة بما يناسبها ، نحن ننزل الملائكة ، أو الملائكة تنزل .

ثم قال : بيد أن هذا الاختلاف فى الحركات قد يدعو إلى تغييرات أبعد مدى من حيث المعنى مثل آية ٤٣ من سورة الرعد :

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

فقد وردت هذه الجملة بالقراءة التالية :

(وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَٰبِ) .

كما أن تغييراً زائداً على هذا في تحريك لفظ علم سمح بالقراءة التاليـة :

(وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَٰبُ) . . انتهى ما قاله جولد زيهر .

أسباب اختلاف القراءات عند جولدزيهر والرد عليه

وأقول : زعم فى هذه المقالة الطويلة أن سبب اختلاف القراءات، ومنشأ تنوعها وتعددها إنما هو خاصية الخط العربى الذى كتبت به المصاحف العثمانية تلك الخاصية هى خلوه من إعجام الحروف ونقطها الذى يدل على ذاتها ، وخلوه من شكل الكلمات الذى يدل على إعرابها ، فالكلمات القرآنية لما كتبت فى المصاحف مجردة من النقط الذى يدل على ذات الحرف ، ومن الشكل الذى يدل على موقع الكلمة من الإعراب — كانت محتملة لقراءات متعددة ، وأوجه متنوعة ، فكان كل قارىء يختار من هذه القراءات ، ومن هذه الأوجه ما يروق فى نظره ، وتنقدح علته فى نفسه .

فاختلاف القراءات — فى زعمه — إنما كان عن تشه وهوى ، ورأى واختيار من القراء ، لا عن توقيف وسند ورواية . .

فليس لهذه القراءات — فى رأيه — سند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس للوحى مدخل فيها .

وخلاصة رأيه أن اختلاف القراءات يرجع إلى سببين :

الأول — تجرد المصاحف من نقط الحروف . .

الثانى — تجردها من شكل الحروف وفقد الحركات اللغوية والنحوية منها . .

وهذا رأى خاطىء ونظر خاسىء ، وزعم باطل ، وفرية منكرة اجترأ عليها جولد زيهر ليقذف بهـا أقدس ما يقدسه المسلمون ، وهو كتاب الله عز وجل بما يزلزل عقيدة الناس فيه ، ويوهمهم أن كتاب الله تعالى لم يكن موضع تحقيق ودقة ، ولم يكن محل ضبط وتحرٍّ وأمانة . . فى ألفاظه ، وقراءاته ، ورواياته ، وطرق أدائه .

إن هذا الرأى تصادمه الحقائق التاريخية التى لا يرتقى الشك إليها ، وتعارضه الأدلة النقلية المتواترة فى جملتها وتفصيلها ، الدالة على أن القراءات مصدرها الوحي الإلهى عن الله عز وجل ، ومنبعها النقل الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أنها سنة متبعة ينقلها الآخر عن الأول ، ويتلقاها الخلف عن السلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل أمين الوحى عن الله تعالى . . .

أجل : إن هذا الرأى يتنافى مع قضايا العقل ، ولا يتلاقى وقوانين المنطق ، ولا يستسيغه الفكر الناضج السليم . .

وهناك من شواهد التاريخ ، وأدلة النقل ، وبراهين العقل ماينقض هذا الرأى ، ويأبى عليه من القواعد .

الدليل الأول :

ان التاريخ – وهو خير شاهد وأصدق مخبر — يدل على أن القرآن الكريم — بجميع قراءاته ورواياته — كان محفوظاً فى صدور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تكتب المصاحف فى عهد الخليفة عثمان ، بل قبل أن يجمع القرآن فى الصحف فى عهد الصّديق أبى بكر ، كما يدل على أن قراءاته ورواياته قد ذاع أمرها ، وانتشر بين الأنام خبرها ، وتداول الناس القراءة بها فى العهد النبوى ، وقد نطقت بذلك الأخبار الصحيحة ، والآثار الصريحة التى لا مطعن فيها ، ولا وهن فى أسانيدها .

ونقص عليك من نبأ هذه الأخبار مالا يبقى معه أدنى شبهة ، ولا أقل ريبة ، فى أن القراءات مردها الرواية ، ومرجعها السماع . . ولا دخل لأحد من البشر فيها كائناً من كان ، وليست خاصية الخط العربى الذى كتبت به المصاحف مدعاة — من قريب أو من بعيد — إلى تنوع القراءات ، واختلاف القراء . .

١ — عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : (أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف) .. أخرجه البخاري ومسلم ..

شرح بعض ألفاظ الحديث

قوله : (فراجعته) يوضح معنى هذه العبارة قوله في حديث مسلم : (فرددت إليه أن هوِّن على أمتي ، وإن أمتي لا تطيق ذلك) .

وقوله : (فلم أزل أستزيده ... الخ) معناه . لم أزل أطلب من جبريل أن يطلب من الله عز وجل الزيادة عن الحرف تخفيفاً على الأمة ، ورحمة بها ، وتوسعة عليها ، ويسأل جبريل ربه سبحانه ، فيزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف .

٢ — عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (سمعت هشام ابن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبَّرت حتى سلَّم ، فلَبَّبْتُهُ بردائه ، فقلت :

من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول

الله ﷺ ، فقلت : كذبت . . فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله ﷺ : أرسله . . اقرأ يا هشام . . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت . . ثم قال : اقرأ يا عمر . . فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت . . إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه) . . أخرجه البخارى ومسلم .

شرح بعض ألفاظ الحديث

(فكدت أساوره فى الصلاة) : أواثبه وأقاتله ، أو آخذ برأسه .

(فتَصَبَّرْتُ حتى سلّم) : تكلفت الصبر وأمهلت هشاما حتى فرغ وانصرف من صلاته .

وقوله : (فلببته بردائه) بباءين موحدتين ، الأولى مفتوحة مشددة ، والثانية ساكنة مخففة . . ومعناه : جمعت عليه رداءه عند لبَّته كى لا يفلت منى ، ولا يتمكن من الفرار .

وقال الامام النووى فى شرح مسلم معناه : أخذت بمجامع ردائه

فى عنقه ، وجررته به مأخوذ من اللَّبة بفتح اللام وهى المنحر ، لأنه يقبض عليها ، وفى هذا بيان ما كانوا عليه من الشدة فى أمر القرآن والعناية به ، والذب عنه ، والمحافظة على لفظه كما سمعوه من رسول الله ﷺ . انتهى .

ومعلوم أن عمر رضى الله عنه كان ذا مراس فى الحق ، شديد الشكيمة فى الدين ، قوى الشوكة فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فصنع ما صنع مع هشام ، لأنه غلب على ظنه أن هشاما جانب الصواب فى القراءة ، واخترع قراءة من تلقاء نفسه لم يسمعها من الرسول ﷺ ، ونظرا لأن عمر فعل ما فعل عن اجتهاد منه بدافع الحفاظ على كتاب الله تعالى ، والذود عنه ، والخوف من امتداد يد التصحيف إليه ، لم يؤاخذه رسول الله ﷺ على ما صنع ، ولم يعنفه عليه ، وقول عمر لهشام (كذبت) قال الحافظ فى الفتح : فيه إطلاق ذلك على غلبة الظن ، أو المراد بقوله (كذبت) أخطأت . . لأن أهل الحجاز يطلقون الكذب فى موضع الخطأ . انتهى .

وقول عمر (فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت) قد ساقه استدلالا على ما غلب على ظنه ، وأداه إليه اجتهاده من أن هشاماً أخطأ فى القراءة نظراً لقرب عهده بالإسلام ، فلم يتمكن من ضبط ما سمع من القرآن .

وأما عمر فاسابقته فى الإسلام ، ورسوخ قدمه فيه ، يكون متقناً ما سمع من القرآن ، متحققاً من ثبوته .

قال الحافظ فى الفتح : وكان سبب اختلافهما أن عمر حفظ هذه السورة من رسول الله صلى الله عليه وسلم قديماً ، ثم لم يسمع ما نزل فيها مخالفاً لما حفظه ، وهشام من مسلمة الفتح ، فكان النبى ﷺ أقرأه على ما نزل أخيراً ، فنشأ اختلافهما من ذلك ، ومبادرة عمر بالإنكار محمولة على أنه لم يكن سمع حديث : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) إلا فى هذه الواقعة . انتهى .

وقوله صلى الله عليه وسلم لعمر (أرسله) أمر له بإطلاق سراحه ، وإنما أمره بذلك ليسمع الرسول صلى الله عليه وسلم من هشام ما ادعاه عليه عمر ، أو ليزيل عنه ضيق التلبيب فتهدأ نفسه ، ويسكن روعه ، ويطمئن فؤاده ، فيتمكن من القراءة أمام الحضرة النبوية ، وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بالقراءة خشية أن يكون الخطأ منه لا من هشام .

وقوله صلى الله عليه وسلم (أنزل القرآن على سبعة أحرف) فيه تطمين لقلب عمر ، وتثبيت لفؤاده ، وإزالة لما عساه أن يكون علق بقلبه من اضطراب وقلق ووسوسة من حيث إن الرسول

صلى الله عليه وسلم صوب كلتا القراءتين : قراءته وقراءة هشام مع اختلافهما .

ويشير إلى هذا ما أخرجه الطبرانى أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقرأ فخالفت قراءته قراءة عمر فاختصما عند الرسول صلى الله عليه وسلم فقال الرجل : ألم تقرئنى يا رسول الله ؟ قال : بلى .. فوقع فى صدر عمر شىء عرفه النبي صلى الله عليه وسلم فى وجهه فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم فى صدر عمر وقال : اللهم أبعد عنه الشيطان .. ثم قال : (أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف) وفى رواية (كلها صواب) .

وقوله صلى الله عليه وسلم (فاقرأوا ما تيسر منه) — أى من الأحرف المنزل بها فيه إشارة إلى الحكمة فى إنزال القرآن على الأحرف السبعة ، وهى التيسير على الأمة ، والتخفيف عليها فى القراءة ، والمعنى ليقرأ كل منكم ما يتيسر على لسانه ، ويسهل عليه النطق به من القراءات ، ولا يشق على نفسه بقراءة لا يطاوعه فيها لسانه ، ولا ينقاد لها بيانه ، فالمراد بما تيسر كيفية القراءة ، وأما قوله تعالى :

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ)[1] ..

---

(١) آية ٢٠ من سورة المزمل .

فالمراد به كمية القراءة لا كيفيتها .

٣ — عن أبيّ بن كعب رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بنى غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال : (إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك .. ثم أتاه الثانية ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك . ثم جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك .. ثم جاءه الرابعة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرفٍ قرءوا عليه فقد أصابوا) .. رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

شرح بعض ألفاظ الحديث

الأضاة : بفتح الهمزة وضاد معجمة مقصورة هى الماء المستنقع كالغدير ، وجمعها أضاً كحصاة وحَصاً ، وإضاة بكسر الهمزة والمد نحو أكمة وإكام ، والأضاة موضع بالمدينة ، ونسب إلى بنى غفار لأنهم نزلوا عنده .

وقوله : (فأيما حرفٍ قرءوا عليه فقد أصابوا) . . قال الإمام النووى فى شرح مسلم : معناه لا تتجاوز أمتك سبعة أحرف ، ولهم الخيار فى السبعة ، ويجب عليهم نقل السبعة إلى من بعدهم بالتخيير فيها ، وأنها لا تتجاوز . انتهى

٤ — عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه قال : (كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ فَحَسَّنَ النبى صلى الله عليه وسلم شأنهما ، فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشينى ، ضرب فى صدرى ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً . . فقال لى : يا أبىّ أرسل إلىّ أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمتى ، فرد إلى الثانية اقرأه على حرفين ، فرددت إليه أن هوّن على أمتى فرد إلىّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها ، فقلت : اللهم اغفر لأمتى . . اللهم اغفر لأمتى . . وأخرت الثالثة ليوم

يرغب إلىّ الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام) . . . رواه مسلم وأحمد . . .

وفى بعض طرق هذا الحديث (واختبأت الثالثة شفاعة لأمتى يوم القيامة) .

وورد فى بعض طرق هذا الحديث أن أبى بن كعب سأل كلا من الرجلين : من أقرأك؟. فيقول : أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما أبى : وأنا أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذهبَنَّ بكما إليه ، فذهب الجميع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسن النبى شأنهما .

وفى بعض الروايات أن الرسول قال لكل منهما : أحسنت . وفى أخرى أنه قال لكل منهما : أصبت . . فصوب كلا فى قراءته مع اختلافها .

شرح بعض ألفاظ الحديث

وقوله (فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذْ كنت فى الجاهلية) فسقط : فوقع . . ويظهر لى — والله أعلم — أن أصل هذا التركيب : فسقط فى نفسى من التكذيب ما لم يحصل لى وقتاً من الأوقات ، ولا وقت كنت فيه فى الجاهلية .

فقوله — بالنظر لأصل التركيب — ما فاعل سقط ، وقوله من التكذيب جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل ، وهو ما وبيان له ، وقوله : ولا .. الواو فيه عاطفة ، ولا حرف نفي مؤكد للنفي المستفاد من لم وإذ ظرف للزمن الماضي بمعنى وقت معطوف على (وقتا) المقدر .

وفي بعض روايات الحديث فسقط في نفسي من الشك والتكذيب أشد مما كنت في الجاهلية .. قال الإمام النووي مبيناً معنى هذه الجملة : وسوس لي الشيطان تكذيباً للنبوة أشد مما كنت عليه في الجاهلية لأنه في الجاهلية كان غافلا أو متشككا ، فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب . انتهى .

وقال الإمام القرطبي : إن أبي بن كعب أصابته نزغة من الشيطان ليشوش عليه حاله ، ويكدر عليه وقته ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما أصابه من هذا الخاطر ضربه في صدره ، فانشرح صدره ، وتنور باطنه ، حتى آل به الكشف وشرح الصدر إلى حال المعاينة ، ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله عز وجل ، وفاض بالعرق — أي سال عرقه من جميع جسمه استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ماقاله فيه الرسول — ﷺ — حين سأله الصحابة

إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به .. قال : أوقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم .. قال : ذاك صريح الإيمان .. انتهى .

وقال القاضى عياض ضربه — ﷺ — فى صدره تثبيتاً له حين رآه قد غشيه ذلك الخاطر المذموم ، والفرق بفتح الفاء والراء: الرعب والخوف والفزع . انتهى .

قال الطيبى كان أبىّ رضى الله عنه من أكمل الصحابة إيماناً وأقواهم يقينا ، وإنما طرأ عليه بسبب الاختلاف نزغة من الشيطان ، فلما أصابته بركة ضربه — ﷺ — بيده المباركة على صدره ذهبت تلك الهاجسة ، وخرجت مع العرق ، فرجع إلى اليقين ، فنظر إلى الله تعالى خوفاً وخجلا مما غشيه من الشيطان . انتهى .

وورد فى بعض طرق هذا الحديث عن أبى قال :(فوجدت فى نفسى وسوسة الشيطان حتى احمر وجهى ، فضرب النبى — ﷺ — فى صدرى وقال : اللهم أخسىء عنه الشيطان) وفى بعض الطرق (اللهم أذهب عن أبىّ الشك) .

ويجب أن يعتقد أن الذى حصل فى نفس أبىّ خطرة من خطرات الشيطان لا تستقر ، وهاجس من هواجس النفس لا يلبث أن يزول ،

لأن فى إيمان الصحابة من القوة والمنعة ما يبدد ظلمات كل شبهة ، ويزيل كل اضطراب وحيرة ، ومن المعلوم فى الدين أن نزغات الشيطان وهواجس النفس لا يحاسب الإنسان عليهما ، ولا يؤاخذ بهما مادام لم يستسلم لهما ، ولم يسترسل معهما ، ولم يعمل بمقتضاهما ، بل اجتهد فى ردهما عن نفسه ، ودفعهما عن قلبه .

والخلاصة أن أبى بن كعب قد مر بنفسه شىء من وسوسة الشيطان التى تمر بنوع البشر جميعاً بكل إنسان مهما رسخ إيمانه ، وقوى يقينه ، وهى خاصية من خواص النوع البشرى وقد كان ذلك قبل أن يعلم أن القرآن نزل على هذه القراءات ، ثم لم تلبث تلك الوسوسة أن ذهبت من صدره ، وصار من أعلام الصحابة وأجلائهم ، وهو أحد الذين كانوا يحفظون القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد الجامعين له على عهد عثمان رضى الله عنه .

وقوله فى الحديث : (وكأنما أنظر إلى الله فرقاً) يفيد أنها كانت كخطرة البرق أو أسرع ، فلما أن جاءه البيان عرف الحق وأيقن به كل الإيقان وكل إنسان منا يمر به من الخواطر ما لا يعلمه إلا الله ، ولا يمكن أحداً أن يحفظ نفسه من تلك الخواطر إلا أنها تجتاز قلب

المؤمن اجتيازاً ، ولا يلبث أن ينزل جند الله فيذهب جند الشيطان يلتمس قلباً آخر لاتنزله الأنوار ، ولاتفاض عليه الأسرار .

وقوله : (فرددت إليه أن هون على أمتى) أن فيه مفسرة ، لأن رددت فى معنى القول — أى فرجعت إليه القول أن هون على أمتى ، وهذا معنى قوله فى الحديث الآخر :(أسأل الله معافاته ومغفرته) .

قوله : (فرد إلى الثالثة اقرأه على سبعة أحرف) صريح هذه الرواية أن الرسول أمر بالقراءة على سبعة أحرف فى المرة الثالثة ، والحديث السابق — الثالث — يدل على أنه أمر بالقراءة على سبعة أحرف فى المرة الرابعة ، ويجمع بين الحديثين بأنه فى هذا الحديث حذف بعض المرات .

وقوله : (ولك بكل رَدَّةٍ رددتكها مسألةٌ تَسألنيها) قال الإمام النووى فى شرح مسلم : معناه مسألة مجابة قطعاً .. وأما باقى الدعوات فمرجوة ليست قطعية الإجابة .

تتمة : القراءة التى أنكرها أبى على صاحبيه كانت فى آيات من سورة النحل ، ولكن لم نعثر على تعيين هذه الآيات .

٥ — عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : (لقى رسول الله

صلى الله عليه وسلم جبريل ، فقال : ياجبريل إنى بعثت إلى أمة أميين ، فيهم : العجوز والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية ، والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط . . قال يامحمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف). رواه أحمد والترمذى وقال حديث حسن صحيح .

شرح بعض ألفاظ الحديث

أميين : جمع أمى وهو من لا يكتب ولا يقرأ . . قال تعالى :

هو ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ)[1] .

وقال ﷺ : (إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب) يعنى أنهم على أصل ولادة أمهاتهم لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى ، وخلقتهم الأصلية .. يعنى أننى بعثت إلى أمة أميين ، فيهم هؤلاء المذكورون ، فلو كلفوا قراءة القرآن بطريقة واحدة لشق ذلك عليهم ، ولكان ذلك سببا للزهد فى القرآن والرغبة عنه ، والنفرة من تلاوته وفى بعض طرق هذا الحديث : فرهم فليقرءوا القرآن

---

(١) آية ٢ من سورة الجمعة .

على سبعة أحرف .. وفى ذلك رحمة بهم ، وتيسير لهم ليقرأ كل واحد منهم مايتيسر له .

٦ — عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص أن رجلا قرأ آية من القرآن فقال له عمرو : (إنما هى كذا وكذا — بغير ما قرأ الرجل — فقال الرجل : هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فخرجا إلى رسول الله ﷺ حتى أتياه فذكرا ذلك له ، فقال ﷺ إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم ، فلا تماروا فى القرآن ، فإن المراء فيه كفر) . . رواه الإمام أحمد فى مسنده وسنده جيد .

قال الإمام أبو عبيد : ليس وجه الحديث عندنا على الاختلاف فى التأويل ، ولكنه على الاختلاف فى اللفظ ، وهو أن يقول الرجل : على حرف ، فيقول الآخر : ليس هو هكذا ولكنه على خلافه ، وكلاهما منزل مقروء به ، فإذا جحد كل واحد منهما قراءة صاحبه لم يؤمن أن يكون ذلك يخرجه إلى الكفر ، لأنه نفى حرفا أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم . انتهى

وفى بعض طرق هذا الحديث : فإن مراء فيه كفر . . والتنكير فيه للتقليل ففيه إيذان بأن أقل مراء فيه يجر إلى الكفر .

٧ — عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القرآن كفر — ثلاث مرات — فما عرفتم منه فاعملوا ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه — أي فتعلموه ممن هو أعلم منكم) . . رواه النسائي والإمام أحمد .

٨ — عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة من آل حم ، فرحت إلى المسجد فقلت لرجل اقرأها . فإذا هو يقرأ حروفا ما أقرؤها ، فقال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه فتغير وجهه وقال : إنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف . . ثم أسر إلى علي شيئا ، فقال علي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن يقرأ كل منكم كما عُلِّم . فقال : فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حروفا لا يقرؤها صاحبه) رواه ابن حبان والحاكم .

٩ — عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد ، وأقرأنيها أبي بن كعب فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي إلى جانبه .

فقال عليّ : ليقرأ كل إنسان منكم كما علم فإنه حسن جميل) . .
رواه ابن جرير الطبرى والطبرانى .

١٠ — روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده الكبير أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه قال يوما وهو على المنبر : (أُذَكِّرُ اللهَ رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف لَمَّا[1] قام ، فقاموا حتى لم يُحْصَوْا فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف . فقال عثمان رضى الله عنه وأنا أشهد معهم) .

وقوله : (فقاموا حتى لم يحصوا) صريح فى تواتر هذا الحديث ، وقد نص جمع من الحفاظ على تواتره منهم : الإمام أبو عبيد القاسم ابن سلام والحاكم .

قال الإمام السيوطى فى الإتقان : (ورد حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف من رواية جمع من الصحابة : أبى بن كعب ، وأنس بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة

---

(١) لما بفتح اللام وتشديد الميم بمعنى ألا ، والمعنى لا أسألُ رجلا سمع النبى قال : كذا الا القيام .

ابن جندب ، وسليمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام ابن حكيم ، وأبي بكرة ، وأبي جهم ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي طلحة الأنصاري ، وأبي هريرة ، وأم أيوب . فهؤلاء أحد وعشرون صحابيا .) انتهى .

وهذه الأحاديث التي سردناها — وهي قل من كثر — ناطقة بأن القراءات منزلة من عند الله تعالى ، موحى بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤخذ هذا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم (أنزل القرآن على سبعة أحرف) ، وقوله عند سماع قراءة كل من هشام وعمر كذلك أنزلت وقول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا) . وكما دلت هذه الأحاديث على أن القراءات نزل بها أمين الوحي جبريل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

دلت على أنها مأخوذة بالتلقي والمشافهة والسماع منه صلى الله

عليه وسلم ويؤخذ هذا من قول عمر لما سمع هشاما يقرأ : فإذا هو يقرأ على حروف لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومن قول هشام لعمر : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقوله عمر لهشام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت . . وقول عمر للرسول : إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . . وقول الرسول : اقرأ يا هشام . . فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ بها . وقول الرسول : اقرأ يا عمر . . يقول عمر : فقرأت القراءة التى أقرأنى . . فالحديث قد تكرر فيه لفظ الإقراء .

كذلك تكررت مادة الإقراء فى الأحاديث : الثالث ، والسادس ، والثامن ، والتاسع . . مما يدل على أن القراءات إنما ثبتت بالتوقيف والتلقين والتلقى ، والأخذ والمشافهة والنقل والسماع ويدل أيضا على أن صحة القراءة متوقفة على التلقى والسماع قول على رضى الله عنه للمتخاصمين فى القراءة اللذين ترافعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن يقرأ كل منكم كما عُلِّم .

إن تنازع الصحابة فى القراءة ، ورجوعهم إليه صلى الله عليه

وسلم — كما دلت على ذلك الأحاديث المذكورة — لأوضح برهان على أن القراءة ليست موكولة إلى أهوائهم ، ولا مفوضة إلى آرائهم ، فليس لأحد منهم أن يقرأ باختياره ، أو من تلقاء نفسه وليس لأحد منهم أن يقرأ حسب رغبته وهواه ، فيغير عبارة بعبارة ، أو يأتي في مكان اللفظ بمرادفه أو مساويه :

إن الصحابة — رضوان الله عليهم — كانوا في الذروة العليا دقة وضبطا لألفاظ القرآن الكريم ، وإحكاما لكلماته وحروفه ، وحرصا على إماطة أدنى تصحيف عن ساحته ، وحسبنا برهانا على ذلك موقف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم ، من تلبيبه له ، وأخذه بخناقه ، وسوقه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه سمع هشاما يقرأ بغير الرواية التي تلقاها عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان إذ ذاك لا يعرف أن القرآن أنزل على سبعة أحرف — فاعتقد أن هشاما غير وبدل من تلقاء نفسه ، فلما عرف أن ذلك مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن قد نزل على وجوه كثيرة يعلمها الرسول للأمة رحمة بهم ، وتسهيلا عليهم ، اطمأنت نفسه ، ولم يتعرض بعدُ لهشام ولا لغيره ، لأن الذي كان يخشاه عمر

إنما هو التبديل والتغيير فى كتاب الله تعالى . . ومعلوم أن سيدنا عمر رضى الله عنه كان لا يخشى فى الحق لومة لائم .

الدليل الثانى :

لما كتبت المصاحف العثمانية وأرسلت إلى الأمصار الإسلامية لم يكتف الخليفة عثمان بإرسالها إلى الأمصار وحدها لتكون الملجأ والمرجع ، بل أرسل مع كل مصحف عالما من علماء القراءة يعلم المسلمين القرآن وَفق هذا المصحف ، وعلى مقتضاه ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمدينة ، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة ، والمغيرة بن شهاب إلى الشام ، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة ، وأبا عبد الرحمن السلمى إلى الكوفة . . فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يقرىء أهل مصره بما تعلمه من القراءات الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التواتر التى يحتملها رسم المصحف ، دون الثابتة بطريق الآحاد والمنسوخة ، وإن كان يحتملهما رسم المصحف ، فالمقصود من إرسال القارىء مع المصحف تقييد ما يحتمله الرسم من القراءات بالمنقول منها تواتراً ، فلو كانت القراءات مأخوذة من رسم المصحف ، وساغ لكل إنسان أن يقرأ بكل قراءة يحتملها رسم المصحف سواء كانت ثابتة بطريق التواتر أم بطريق الآحاد ،

أم كانت منسوخة أم لم يكن لها سند أصلا لم يكن ثم حاجة إلى إرسال عالم مع المصحف ، فإيفاد عالم مع المصحف دليل واضح على أن القراءة إنما تعتمد على التلقى والنقل والرواية ، لا على الخط والرسم والكتابة .

الدليل الثالث :

لو كان خلو المصاحف من الشكل والإعجام سبباً فى تنوع القراءات واختلافها — أى أن هذا الاختلاف نتيجة حتمية لخلو المصاحف من الشكل والإعجام — لكانت كل قراءة يحتملها رسم المصحف صحيحة معتبرة من القرآن وليس كذلك ، فإن ما يحتمله رسم المصاحف من القراءات أربعة أقسام :

القسم الأول — ما ثبت بطريق التواتر وهو جل القراءات ومعظمها كالقراءات فى كلمة « ونخرج » فى قوله تعالى :

(وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰباً يَلْقَـٰهُ مَنْشُوراً)[1] . .

فإن كلمة (ونخرج) فيها ثلاث قراءات : الأولى — بنون مضمومة مع كسر الراء . . الثانية — بياء مثناة تحتية مضمومة مع فتح الراء . . الثالثة — بياء مثناة تحتية مفتوحة مع ضم الراء .

(١) آية ١٣ من سورة الاسراء .

والقراءات الثلاث ثابتة بطريق التواتر ، والرسم يحتملها كلها .

القسم الثانى — ماثبت بطريق الآحاد ، وصح سنده بنقل العدل الضابط عن مثله ، وهكذا إلى نهاية السند ، واستفاض نقله عن أئمة الأداء ، واشتهر ذكره بين شيوخ الإقراء ، وتلقاه علماء القراءة بالرضا والقبول ، كقراءة :

(وَٱلَّذِى خَبُثَ لا يُخْرِجُ إلاَّ نَـكِدًا)[1] . بضم الياء وكسر الراء فى يخرج .

وقراءة: (أَجَعَلْتُمْ سقاية ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلحَرَامِ)[2] بضم السين وحذف الياء — جمع ساق مثل رماة جمع رام ، وعمرة بفتح العين والميم مع حذف الألف بعدها جمع عامر مثل صنعة جمع صانع ، فهاتان القراءتان مع ثبوتهما بطريق الآحاد قد صح سندها وذاع بين القراء خبرها ، وتلقوها بالقبول ، ورسم المصحف يحتملهما .

وحكم هذين القسمين واحد ، وهو أن كل واحد منهما يعتبر قرآنا ، ويتعبد بتلاوته فى الصلاة وغيرها ، فيجب قبوله ، ولا يحل

---

(١) آية ٥٨ من سورة الأعراف .

(٢) آية ١٩ من سورة التوبة .

إنكار شيء منه، ومن أنكر شيئاً منه فهو كافر، حلال الدم.

القسم الثالث — ماثبت بطريق الآحاد، وصح سنده، ولكنه لم يشتهر، ولم يظفر بالذيوع والاستفاضة ولم يتلقه علماء القراءة بالقبول كقراءة (وكان عَبداً لله وجيها) بفتح العين وباء تحتية موحدة ساكنة بعد العين مع نصب الدال وتنوينها بدلا من : (وكَانَ عِندَ آللهِ وَجِيهاً)[1].

وهذا القسم شاذ تمنع القراءة به منع تحريم فى الصلاة، وخارج الصلاة، ولا يحل التعبد بتلاوته.

القسم الرابع — مالم يصح سنده، أو لم يعرف له سند أصلا كقراءة بعضهم :

(وما كَانَ آستِغفَارُ إبرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إلاَّ عَن مَّوعِدَةٍ وَعَدَهَآ أَبَاهُ)[2]..

بهمزة مفتوحة وباء موحدة تحتية مفتوحة خفيفة بدلا من إياه بكسر الهمزة وياء مثناة تحتية مفتوحة مشددة وهذا القسم لا يعتبر قرآنا، ولا يسوغ التعبد بتلاوته بحال، فتحرم القراءة به بإجماع المسلمين. ورسم المصحف يحتمل هذين القسمين الثالث والرابع.

(١) آية ٦٩ من سورة الأحزاب .

(٢) آية ١١٤ من سورة التوبة .

وأزيد هذا الدليل إيضاحا فأقول :

فى القرآن الكريم كلمات تكررت فى مواضع كثيرة ، ورسمت برسم واحد فى جميع المواضع ، ولكنها فى بعض المواضع وردت فيها القراءات التى يحتملها رسمها ، فاختلف فيها القراء ، وتنوعت فيها قراءاتهم .

وفى بعض المواضع اتفق القراء على قراءتها بوجه واحد ، لأن غيره لم يصح به النقل ، ولم تثبت به الرواية مع أن الرسم يحتمله .

وهاك أمثلة لما ذكرنا .

المثال الأول : « كلمة مالك » .

ذكرت فى القرآن على أنها صفة أو فى حكم الصفة فى ثلاثة مواضع :

(مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّين) فى الفاتحة .

(قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ) فى آل عمران .

(مَلِكِ ٱلنَّاس) فى سورة الناس .

ورسمت هذه الكلمة برسم واحد فى المواضع الثلاثة ،

وهو حذف الألف بعد الميم ، ولكن القراء اختلفوا فى قراءتها فى موضع الفاتحة فقط ، فمنهم من قرأها فيه بحذف الألف ، ومنهم من قرأها فيه بإثباتها .

أما موضع آل عمران فقد اتفقوا على قراءتها فيه بإثبات الألف مع أنه لو قرئتِ الكلمة فى هذا الموضع بحذف الألف لكان ذلك سائغا لغة ومعنى ، ولكن لم تقرأ بالحذف فى هذا الموضع لعدم ثبوت الرواية فيه بالحذف .

وأما موضع سورة الناس فقد اتفق القراء على قراءة الكلمة فيه بحذف الألف مع أنه لو قرئت هذه الكلمة فى هذا الموضع بإثبات الألف لكان ذلك سائغاً لغة ومعنى ولكن لم تقرأ الكلمة فى هذا الموضع بالإثبات لعدم ثبوت النقل فيه بالإثبات ، فلو كانت القراءات بالرأى والاجتهاد لا بالتلقى والتوقيف ، وكان تنوع القراءات تابعاً لرسم المصحف لم يكن اختلاف القراء مقصوراً على موضع الفاتحة بل كان يتناول للموضعين الآخرين ، لكنهم اختلفوا فى موضع الفاتحة واتفقوا فى موضعى آل عمران والناس ، فدل هذا على أن القراءات لم تكن بالاختيار والاجتهاد ، ولم يكن تنوعها تابعاً للخط والرسم ، وإنما هو تابع للسند والرواية والنقل .

المثال الثانى : كلمة « غشاوة » .

وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى موضعين :

الأول فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

(وَعَلَىٰ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ) آية ٧ .

الثانى فى سورة الجاثية فى قوله تعالى :

(وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً) آية ٢٣ .

وهذه الكلمة مرسومة فى جميع المصاحف العثمانية بحذف الألف بعد الشين فى الموضعين معاً ، ومع ذلك اتفق القراء على قراءتها فى موضع البقرة بكسر الغين وفتح الشين وإثبات ألف بعدها . واختلفوا فى قراءتها فى موضع الجاثية ، فقرأها بعضهم بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها ، وقرأها بعضهم بفتح الغين وسكون الشين .

ولو قرىء موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لكان ذلك صحيحاً لغة ومعنى ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة فى هذا الموضع لعدم ثبوتها فيه وهذا يدل على أن القراءة إنما تؤخذ بالمشافهة والسماع ولا تؤخذ من خط المصحف ورسمه .

المثال الثالث : كلمة « الصاعقة » .

ذكرت هذه الكلمة معرفة ومنكرة فى القرآن الكريم فى ستة مواضع .

الأول فى قوله تعالى فى سورة البقرة :

(فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) آية ٥٥ .

الثانى فى سورة النساء :

(فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ) آية ١٥٣ .

الثالث والرابع فى سورة فصلت فى قوله تعالى :

(فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) آية ١٣ .

الخامس فى سورة فصلت أيضاً :

(فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ) آية ١٧ .

السادس فى سورة الذاريات :

(فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ) آية ٤٤ .

وهذه الكلمة مرسومة فى جميع المصاحف العثمانية فى المواضع الستة بدون ألف بعد الصاد ، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها فى المواضع الخمسة الأولى بإثبات الألف بعد الصاد مع كسر العين ، واختلفوا فى الموضع السادس فقرأها بعضهم فيه بإثبات الألف بعد الصاد مع كسر العين ، وقرأها بعضهم بحذف الألف مع سكون العين ، ومعنى القراءتين واحد ، فلو كان تنوع القراءات تابعاً للرسم لاختلف القراء فى المواضع الخمسة كما اختلفوا فى الموضع السادس . ولكنهم اتفقوا فى المواضع الخمسة واختلفوا فى السادس فكان ذلك دليلا على أن العمدة فى ثبوت القراءة التوقيف والرواية لا الرسم والكتابة .

المثال الرابع : « كرها » .

ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى ستة مواضع :

الموضع الأول فى آل عمران :

(وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) آية ٨٣ .

الموضع الثانى فى سورة النساء فى قوله تعالى :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا) آية ١٩ .

الموضع الثالث فى التوبة :

(قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ) آية ٥٣ .

الموضع الرابع فى الرعد :

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) آية ١٥ .

الموضع الخامس فى فصلت :

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) آية ١١ .

الموضع السادس فى الأحقاف :

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) آية ١٥ .

وقد اتفق القراء على قراءة الكلمة بفتح الكاف فى المواضع : الأول والرابع والخامس . واختلفوا فى المواضع : الثانى والثالث والسادس ، فمنهم من قرأ بضم الكاف ومنهم من قرأ بفتحها والضم والفتح لغتان بمعنى واحد ، وتجريد المصاحف من شكل الحروف يجعل كل موضع من المواضع الستة محتملا لقراءتى الضم والفتح ولكن لم يقرأ قارىء بالضم فى المواضع : الأول والرابع والخامس كما سبق .

فلو كان اختلاف القراءات نتيجة لخلو المصاحف من الشكل لاختلف القراء فى جميع المواضع ولكنهم اتفقوا فى البعض واختلفوا فى البعض ، فحينئذ يكون العمدة فى اختلاف القراءات إنما هو النقل والرواية ، ولا يكون لخلو المصاحف من الشكل دخل ما فى اختلاف القراءات .

المثال الخامس : ثبت أن الإمام نافعاً قرأ لفظ (يحزن) فى القرآن الكريم كيف ورد بضم الياء وكسر الزاى نحو قوله تعالى فى سورة يس :

(فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ) آية ٧٦ .

وقوله تعالى فى سورة الأنعام :

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ) آية ٣٣ .

وقوله تعالى فى سورة المجادلة :

(لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) آية ١٠ .

واستثنى من ذلك قوله تعالى فى سورة الأنبياء :

(لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ) آية ١٠٣ .

فقرأه بفتح الياء وضم الزاى .

وثبت أن إمام أهل المدينة أبا جعفر قرأ لفظ (يحزن) فى سورة الأنبياء خاصة بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ سائر المواضع — غير هذا الموضع — بفتح الياء وضم الزاى ، وكلا الإمامين — نافع وأبى جعفر — مقتف للأثر متبع للرواية .

فلو صح أن منشأ القراءات تجريد المصاحف من شكل الحروف وحركاتها لما فرق الامامان المذكوران بين مواضع هذا اللفظ فى القرآن الكريم حيث إن رسم اللفظ فى المصاحف واحد ، واللغة تسيغ كلتا القراءتين وهما بمعنى واحد .

يقال فى اللغة حزنه الأمر وأحزنه إذا أهمه ، وسياق الآيات لا ينبو عنهما .

المثال السادس : كلمة « مدخلا » .

اختلف القراء فى قراءة كلمة « مدخلا » فى قوله تعالى فى سورة النساء :

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً) آية ٣١ .

وفى قوله تعالى فى سورة الحج :

(لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ) آية ٥٩ .

فقرأها بعضهم بضم الميم فى الموضعين ، وقرأها بعضهم بفتح الميم فيهما . واتفقوا على قراءة كلمة « مدخل » فى قوله تعالى فى سورة الإسراء :

(وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ) آية ٨٠ .

بضم الميم . واللغة تجيز فى هذا الموضع فتح الميم كما تجيزه فى الموضعين السابقين ولكن لم يقرأ قارئٌ فى هذا الموضع بفتح الميم ، فلو كان مرجع القراءات رسم المصحف لقرئت هذه الكلمة فى هذا الموضع بقراءتين ضم الميم وفتحها كما قرئت فى الموضعين السابقين ولكن لم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم فتح الميم فى هذا الموضع ، فاتفق القراء على قراءتها بالضم ، إذاً يكون مرجع القراءات التوقيف والرواية لا الرسم والكتابة .

المثال السابع : لفظ (تخرجون) .

اختلف القراء فى قراءة تخرجون فى سورة الأعراف فى قوله تعالى :

(قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) آية ٢٥ .

وفي الموضع الأول من سورة الروم فى قوله تعالى :

(وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) آية ١٩ .

وفى سورة الزخرف فى قوله تعالى :

(فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) آية ١١ .

وفى سورة الجاثية فى قوله تعالى :

(فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) آية ٣٥ .

اختلف القراء فى هذه المواضع ، فمنهم من قرأ بضم الحرف الأول وفتح الثالث على البناء للمفعول ، ومنهم من قرأ بفتح الأول وضم الثالث على البناء للفاعل واتفقوا على قراءة الموضع الثانى من سورة الروم ، وهو قوله تعالى :

(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) آية ٢٥.

بفتح التاء وضم الراء على البناء للفاعل ، ولا شك أن خلو المصاحف من شكل الحروف يجعل هذا الموضع أيضاً محتملا للقراءتين الثابتتين فى المواضع السابقة ، واللغة تجيز قراءته بالبناء للمفعول ، ومعنى الآية يسيغه .

ولكن هذه القراءة (بالبناء للمفعول) لم تأت بها رواية ، ولم يثبت بها سند ، فلم يقرأ بها أحد ، وهذا أيضاً من البراهين على أن

مصدر القراءات وتنوعها إنما هو التوقيف والتلقين والأخذ والسماع ، ولا دخل لخلو المصاحف من الشكل فى هذا ألبتة .

المثال الثامن : اختلف القراء فى قراءة لفظ (الرشد) فى سورة الأعراف .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) .. آية ١٤٦.

وفى قراءة لفظ (رشداً) فى قوله تعالى فى سورة الكهف .

(هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رشداً) .. آية ٦٦ .

وخلاف القراء فى هذين اللفظين دائر بين ضم الراء ، وسكون الشين ، وفتح الراء والشين ، وهما لغتان فى هذا اللفظ كالبخل بضم الباء وسكون الخاء وبفتحهما ، والحزن بضم الحاء وسكون الزاى وبفتحهما ، والسقم بضم السين وسكون القاف وبفتحهما .

واتفقوا على قراءة لفظ « رشدا » فى قوله تعالى فى سورة الكهف :

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً) آية ١٠ .

وقوله تعالى فى نفس السورة: (لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رشَداً) آية ٢٤.

وقوله تعالى فى سورة الجن: (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) آية ١٠.

وقوله فى نفس السورة (فَأُولَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) آية ١٤ .

وقوله فى نفس السورة : (لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا) آية ٢١ .

اتفقوا على قراءة هذا اللفظ فى المواضع المذكورة بفتح الراء والشين ، كما اتفقوا على قراءة قوله تعالى فى سورة الجن :

(يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ) .. آية ٢ .

بضم الراء وسكون الشين ، وهذا اللفظ فى جميع المواضع المذكورة — سواء كان معرفا أم منكراً — المتفق عليها والمختلف فيها معناه واحد وهو الحق والخير والصلاح والصواب .

فلو كان اختلاف القراءات وليد خلو المصاحف من شكل الحروف وضبطها بالحركات والسكنات لقرىء هذا اللفظ فى جميع مواقعه بقراءتين ، إذ أن اللغة تجيز كلتا القراءتين ، ومعنى اللفظ لا يختلف عليهما .

أما وقد اتفق القراء على قراءته بوجه واحد فى بعض المواضع واختلفوا فى قراءته فى بعض المواضع فقرءوه بوجهين فلا يكون ذلك راجعاً إلا إلى اتفاق النقل فى المواضع المتفق عليها ، واختلافه فى المواضع المختلف فيها وليس لرسم المصاحف دخل فى هذا ألبتة .

المثال التاسع : ورد لفظ (ضرا) فى القرآن فى المواضع الآتية :

الأول فى المائدة :

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَالاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً).. آية ٧٦ .

الثانى فى الأعراف :

(قُلْ لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نفعاً وَلاَ ضَرًّا إِلَّا مَاشَآءَاللهُ) .. ١٨٨.

الثالث فى يونس :

(قُلْ لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً إِلَّا مَاشَآءَ ٱللهُ) آية ٤٩.

الرابع فى طه : (أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ولاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضرًّا ولاَ نفْعاً) .. آية ٨٩.

الخامس فى الفرقان :

(وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً) آية ٣ .

السادس فى سبأ :

(فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرًّا) آية ٤٢.

السابع فى الفتح :

(إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً) آية ١١ .

الثامن : فى الجن .

(قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا) آية ٢١ .

وقد اتفق القراء على قراءة هذا اللفظ فى جميع مواضعه بفتح الضاد . ماعدا موضع الفتح فاختلفوا فيه ، فقرأه بعضهم بفتح الضاد ، وقرأه بعضهم بضمها ، والفتح والضم لغتان بمعنى واحد وهو الضرر ضد النفع ، وهذا أيضاً من جملة الحجج على أن القراءات ليست بالاختيار والاجتهاد ، إنما هى بالتوقيف واتباع الإسناد .

المثال العاشر : لفظ (حزن) وقع هذا اللفظ منكراً ومعرفاً فى خمسة مواضع فى القرآن الكريم :

الأول فى سورة التوبة :

(وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حزناً) .. آية ٩٢.

الثانى فى سورة يوسف :

(وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحزنِ) . آية ٨٤

الثالث فى سورة يوسف :

(قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحزنى إِلَى ٱللَّهِ) .. آية ٨٦ .

الرابع فى سورة القصص :

(فَٱلْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحزناً) .. آية ٨.

الخامس فى سورة فاطر .

(وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ) آية ٣٤ .

وهذا اللفظ — سواء كان منكراً أم معرفا — فيه لغتان بمعنى واحد ضم الحاء وسكون الزاى وفتح الحاء والزاى . .

ولكن القراء اختلفوا فى موضع القصص خاصة فقرأه بعضهم بضم الحاء وسكون الزاى — وقرأه بعضهم بفتحهما ، واتفقوا على قراءة الموضع الأول فى التوبة والخامس فى فاطر بفتح الحاء والزاى، وعلى قراءة موضعى يوسف بضم الحاء وسكون الزاى ، وهذا من أبين الأدلة على أن الاعتماد فى القراءات على الرواية والنقل لا الرسم والخط .

المثال الحادى عشر : لفظ (فعميت) ذكر هذا اللفظ فى القرآن فى موضعين . .

الأول فى سورة هود :

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ)

آية ٢٨ .

الثانى فى سورة القصص :

(فعميتْ عَلَيْهِمْ ٱلْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ) آية ٦٦ .

وقد اختلف القراء فى قراءة موضع هود فقرأه بعضهم بضم العين وتشديد الميم المكسورة ، وقرأه بعضهم بفتح العين وتخفيف الميم المكسورة .

أما موضع القصص فقد اتفق القراء على قراءته بفتح العين وتخفيف الميم فلو كان منشأ اختلاف القراءات تجرد المصاحف من الحركات لوقع اختلاف القراء فى الموضعين معاً أما وقد اختلفوا فى موضع واتفقوا فى آخر فلا يكون منشأ الاختلاف ما ذكر . إنما منشؤه النقل ، والرواية ، والسماع .

المثال الثانى عشر : كلمة (نسقى) وردت فى القرآن فى أربعة مواضع :

فى النحل :

(نسقيكم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ) آية ٦٦ .

وفى المؤمنين :

(نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا) آية ٢١ .

وفى الفرقان :

(وَنسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أنعاماً وَأناسِيّ كَثِيراً) آية ٤٩ .

وفى القصص :

(قَالَتَا لَا نسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) آية ٢٣ .

وقد اختلف القراء فى قراءة الكلمة « نسقيكم » فى موضعى النحل والمؤمنون ، فمنهم من قرأها فيهما بالنون المضمومة ، ومنهم من قرأها فيهما بالنون المفتوحة ، ومنهم من قرأها فيهما بالتاء المثناة الفوقية المفتوحة ، واتفقوا على قراءتها فى موضع الفرقان « ونسقيه » بالنون المضْمُومة ، مع أن رسم هذه الكلمة فى المصحف — لكونه غير منقوط ولا مشكول يحتمل القراءات الثلاث فيهما ، كما احتملها فى الموضعين المذكورين ، ولكن قراءة هذه الكلمة (وتسْقِيه) . بالتاء المفتوحة لا تلائم نظم الآية ، ولا تتفق مع معناها وسياقها فلم يقرأ بها أحد ، وقراءتها بالنون المفتوحة — وإن كانت اللغة تسيغها ومعنى الآية لا ينبو عنها لم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقرأ بها أحد أيضاً .

كما اتفقوا على قراءة (قَالَتَا لاَ نَسْقِي) فى سورة القصص بفتح النون ، وإن كانت اللغة تجيز ضمها ، لأنه يقال فى اللغة سقاه وأسقاه بمعنى واحد .

ومن الأول قوله تعالى فى سورة الدهر : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) آية ٢١ .

ومن الثانى قوله تعالى فى سورة الجن : (لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً) آية ١٦ .

وقوله تعالى فى المرسلات : (وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتاً) آية ٢٧ .

فدل ذلك على أن القراءة إنما تكون بالسماع والاتباع ، لا بالاجتهاد والابتداع .

المثال الثالث عشر : وقع لفظ (كسفاً) فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع . .

الأول فى سورة الإسراء :

(أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسفاً) آية ٩٢ .

الثانى فى سورة الشعراء :

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) آية ١٨٧ .

الثالث فى سورة الروم :

(وَيَجْعَلُهُ كِسفاً فَتَرى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِ) آية ٤٨ .

الرابع فى سورة سبأ :

(إِنْ نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ) آية ٩ .

الخامس فى سورة الطور :

(وَإِنْ يَرَوْاْ كِسفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ساقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ) آية ٤٤ .

وقد اختلف القراء فى المواضع الأربعة الأولى ، فمنهم من قرأها بفتح السين ومنهم من قرأ بإسكانها ، أما الموضع الخامس فقد اتفق القراء على قراءته بسكون السين ، واللغة العربية تجيز فتح السين فى هذا الموضع أيضاً وسياق الآية لا يأباه ، فلو كان اختلاف القراءات تابعاً لتجرد المصاحف من الشكل والحركات لاختلف القراء فى هذا الموضع ، كما اختلفوا فى المواضع السابقة ، فاختلافهم فى المواضع السابقة واتفاقهم فى هذا الموضع دليل على أن المعول عليه فى تنوع القراءات إنما هو السند والرواية والأثر لا الخط والرسم .

المثال الرابع عشر : اختلف القراء فى قراءة كلمة (ينفخ) فى قوله تعالى فى سورة طه :

(يَوْمَ ينفخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرقًا) . . آية ١٠٢ .

فقرأها بعضهم بياء مثناة تحتية مضمومة مع فتح الفاء على البناء للمفعول ، وقرأها بعضهم بالنون المفتوحة مع ضم الفاء على البناء للفاعل .

واتفقوا على قراءة هذه الكلمة (يُنفَخُ) بضم الياء وفتح الفاء فى قوله تعالى فى سورة النمل :

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ) آية ٨٧ .

وفى قوله فى سورة النبأ :

(يَوْمَ ينفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا) . . آية ١٨ .

مع أنَّ سياق الآيتين المذكورتين لا يأبى القراءة بالنون فيهما ، أمَّا آية النمل فقراءتها بالنون تتسق مع أسلوب الآيات قبلها .

إقرأ إن شئت من قوله تعالى :

(وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ) .

إلى قوله تعالى :

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

ثم تدبر هذه الكلمات (أَخْرَجْنَا) .. (بِـَٔايَـٰتِنَا) .. (نَحْشُرُ) أنا (جَعَلْنَا) .. تجدها متناسبة متناسقة مع القراءة بالنون المفتوحة مع ضم الفاء .

وكذلك آية النبأ فقراءتها بالنون تلائم أسلوب الآيات قبلها إقرأ إن شئت :

(وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ، لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا) .

إن نون العظمة فى الآيات السابقة على آيتى النمل والنبأ تتسق مع قراءة « ننفخ » فى الآيتين المذكورتين بالنون ، ولكن لم يقرأ أحد

من الأئمة بالنون فى آية من هاتين الآيتين ، لعدم ورود القراءة بالنون فيهما فدل هذا على أن القراءات إنما تثبت بالتلقى والتوقيف لا بالاجتهاد والابتداع .

المثال الخامس عشر : لفظ (سخريا) .

ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع :

الأول فى قوله تعالى فى سورة المؤمنين :

(فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سخريًا) آية ١١٠ .

الثانى فى قوله تعالى فى سورة صٓ :

(أَتَّخَذْنَاهُمْ سخريًا) آية ٦٣ .

الثالث فى قوله تعالى فى سورة الزخرف :

(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سخريًّا) آية ٣٢ .

وقد اختلف القراء فى قراءة الموضعين الأولين فقرأهما بعضهم بضم السين ، وقرأهما بعضهم بكسرها ، واتفقوا على قراءة الموضع الثالث بضم السين ، والضم والكسر لغتان ، ومعناهما واحد ، والمصاحف العثمانية مجردة من النقط والشكل ، فلو كانت القراءات ناشئة من رسم المصاحف لاختلف القراء فى الموضع الثالث كما اختلفوا فى الأول والثانى ، لكنهم اتفقوا فى الموضع الثالث . فكان ذلك

دليلا على أن القراءات لم تنشأ عن خط المصاحف ورسمها، وإنما نشأت عن التوقيف والسماع .

وفى القرآن الكريم كلمات أخرى رسمت غير معجمة ولا مشكولة، ورسمها كذلك يجعلها محتملة لقراءات متعددة ، واللغة العربية تجيز فيها هذه القراءات . ومع ذلك لم يختلف فيها القراء ، ولم تتعدد فيها القراءات ، بل اتفقوا على قراءة واحدة فيها، لأنه لم يرو فيها بالسند القوى، والأثر الثابت ، والنقل الموثق، إلا هذه القراءة، وأما غيرها من القراءات التى يحتملها رسم المصاحف فليس له سند يعتمد عليه ، وأصل يرد إليه فلم يقرأ به أحد .

وهاك أمثلة لذلك :

١ — (خطف يخطف) جاء فى لغة العرب أن فيها لغتين ، خطِفَ يَخْطَفُ من باب عَلِمَ يَعْلَمَ ، وخَطفَ يَخْطِف من باب عَمَدَ يَعْمِدُ ، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها بكسر الطاء فى الماضى وفتحها فى المضارع .

٢ — (مُكْث) فى قوله تعالى فى سورة الإسراء :

(وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا) ١٠٦ .

اللغه تجيز فيها تثليث الميم ورسمها يحتمل الأوجه الثلاثة ، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها بضم الميم ، فلو كانت القراءات بالرأى والاختيار ، وكان خلو الكلمات من الشكل سبباً فى اختلاف القراءات وتنوعها لاختلف القراء فى قراءة الكلمات السابقة فكان منهم من يقرأ خطف يخطف من باب علم يعلم ، وكان منهم من يقرأ خطف يخطف من باب عمد يعمد ، وكان منهم من يقرأ على مكث بضم الميم ، ومنهم من يقرأ بفتحها ، ومنهم من يقرأ بكسرها .

والمعنى لا يختلف ، واللغة تسيغ جميع هذه القراءات ، ولكن القراء اتفقوا على قراءة خطف بالكسر يخطف بالفتح ، وعلى قراءة على مكث بالضم ، فحينئذ لا تكون القراءات بالرأى والاختيار ، ولا بالهوى والاجتهاد ، ولا يكون تجرد المصاحف من الشكل سبباً فى تنوع القراءات واختلافها إنما سبب التنوع والاختلاف الروايات الصحيحة ، والأسانيد الموصولة ، والنقول الصريحة ، والتوقيف والتلقى والسماع .

٣ — لفظ الرضاعة فى القرآن نحو :

(لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ)[١] .

(وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ)[٢] .

فى راء الرضاعة لغتان الفتح والكسر ، ولكن القراء أجمعوا على قراءته بالفتح .

٤ — وذكر بعض الأدباء عن الأصمعى أنه سأل المازنى : ما تقول فى قول الله عز وجل :

(إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بقدرٍ)[٣] .

فقال المازنى : يذهب سيبويه إلى أن الرفع فيه أقوى من النصب فى العربية لاشتغال الفعل بالضمير .

وليس هناك شىء هو بالفعل أولى ، ولكن أبت القراء إلا النصب ، فنحن نقرؤها كذلك اتباعا لأن القراءة سنة . انتهى .

٥ — (يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ)[٤] .

---

(١) آية ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٢) آية ٢٣ من سورة النساء .

(٣) آية ٤٩ من سورة القمر .

(٤) آية ١١ مة سورة النساء .

تجيز اللغة فى لفظ (يوصيكم) فتح الواو وتشديد الصاد ، من التوصية ، كما تجيز سكون الواو وتخفيف الصاد من الإيصاء .

وقد جاءت اللغتان فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

(ووصىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ)[1].

قرئ : (ووصى) بواوين مفتوحتين مع تشديد الصاد من التوصية ، وقرئ : وأوصى بواوين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة وبينهما همزة مفتوحة مع تخفيف الصاد من الإيصاء .

وفى قوله تعالى :

(فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ)[2] .

قرئ : (موص) بفتح الواو وتشديد الصاد من التوصية . وقرئ بسكون الواو وتخفيف الصاد من الإيصاء ، ومع أن التشديد والتخفيف لغتان ذكرتا فى الآيتين المذكورتين لم تقرأ كلمة (يوصيكم) فى الآية السابقة إلا بقراءة واحدة ، وهى سكون الواو وتخفيف الصاد

---

(١) آية ١٣٢ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٨٢ من سورة البقرة .

لأنه لم يرو عن رسول الله ﷺ إلا هذه القراءة ، وهذا يدل على أن القراءات إنما تعتمد على السند والآثار ، لا على الكتابة والاختيار.

٦ — وقال الإمام الفراء في كتابه معاني القرآن في قوله تعالى في سورة طه :

﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ ﴾ .. آية ٦٩ .

ولو قرأ قارىء (كيد) بالنصب لكان صواباً إذا جعلت إنّ وما حرفاً واحداً ، ولكن لم يقرأ به واحد من القراء العشرة ، ولا من الأربعة الذين فوق العشرة .

٧ — وقال أيضاً في قوله تعالى في سورة الكهف :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا ﴾ .. آية ٦ .

قرأه القراء بالكسر ولو قرئت إن بالفتح على معنى إذ لم يؤمنوا ، أو لأن لم يؤمنوا ، أو من أن لم يؤمنوا لكان صواباً ، ولكن اتفق القراء على قراءة إن بالكسر .

على أن بعض أئمة القراء قد خالف مرسوم جميع المصاحف

العثمانية إيثاراً للأثر ، واتباعاً للنقل ، واقتداء بالسنة ، وعملا بالتلقى والمشافهة ، ومحافظة على التوقيف والسماع .

ومن أمثلة ذلك :

١ — (ٱلصِّرٰط) معرفاً ومنكراً فى جميع القرآن ، (والله يَقْبِضُ وَيَبْصط) فى البقرة ، (وَزَادَكُمْ فِى الخَلْقِ بَصطة) فى الأعراف (أم هم ٱلْمُصَيطرون) . . فى الطور ، (لست عليهم بِمُصَيْطر) . . فى الغاشية .

كتبت هذه الكلمات فى جميع المصاحف العثمانية بالصاد ، ومع هذا قرأها بعض القراء بالسين ، وقرأها بعضهم باشمام الصاد صوت الزاى والقراءات الثلاث متواترة .

٢ — فى هود :

(ألآ إن ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُم) . . آية ٦٨

وفى الفرقان :

(وَعادًا وَثَمُوداْ وَأَصْحَٰبَ الرَّسِّ) . . آية ٣٨

وفى العنكبوت :

(وَعَاداً وثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم) . . آية ٣٨

وفى النجم :

(وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ) . . آية ٥١ .

كتبت كلمة (ثمود) فى هذه الآيات فى جميع المصاحف العثمانية بالألف بعد الدال ، ومع ذلك قرأها بعض القراء بحذف الألف اقتداء بالسنة ، ومثل هذه الكلمة فى رسم المصاحف كلمتا (قواريراْ)[1] فى سورة الإنسان فقد رسمتا بإثبات الألف بعد الراء فى جميع المصاحف وقرأها البعض بحذفها والقراءة بحذف الألف فى كلتا الكلمتين متواترة كالقراءة بإثباتها .

٣ — فى سورة التوبة :

(إِلَّآ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) .. آية ١١٠.

رسمت كلمة (إلاّ) هكذا فى كل المصاحف على أنها أداة إستثناء ، ولكن بعض القراء قرأها هكذا (إلىٰ) على أنها حرف جر عملا بالتلقى .

٤ — فى مريم :

(لِأَهَبَ لك) .. آية ١٩.

---

(١) آيتا ١٥ ، ١٦ من سورة الانسان .

رسمت هذه الكلمة فى جميع المصاحف بألف بعد اللام ، ومع ذلك قرأها بعض القراء بياء بعد اللام اتباعا للنقل .

٥ — « الأيكة » رسمت هذه الكلمة فى سورة الشعراء (كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْـكَةِ الْمُرْسَلِينَ) ، وفى سورة ص (وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْـكَةِ أُوْلَٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ) رسمت هكذا (ليكه): فى جميع المصاحف بحذف الألف قبل اللام ، فقرأها بعض القراء بحذف همزة الوصل قبل اللام مع فتح اللام وياء ساكنة بعدها وفتح التاء .

وهذه القراءة موافقة للرسم ، وقرأها البعض الآخر هكذا (ٱلْأَيْكَةِ) ، بهمزة وصل مع سكون اللام ، وهمزة مفتوحة بعدها مع سكون الياء وكسر التاء ، وهذه القراءة مخالفة لرسم جميع المصاحف ، ولكنها ثبتت بطريق التواتر كالقراءة الأولى .

ومن جميع ما تقدم يتضح اتضاحا لا شبهة فيه أن تنوع القراءات واختلافها ليس وليد إغفال الكلمات القرآنية من النقط والشكل ، إذ لو كان كذلك لكانت كل قراءة يحتملها رسم المصاحف صحيحة متى وافقت اللغة ، وليس كذلك ، فإن كثيراً من الكلمات يحتمل رسمها أكثر من قراءة لخلو الكلمات من الإعجام والشكل ، ولكن لم يصح فيها إلا قراءة واحدة كما سبق ، فحينئذ يكون مرجع القراءات

الروايات المتواترة ، والآثار الصحيحة ، والأسانيد القوية المروية عن الثقات الأثبات ولا دخل للرسم والكتابة فيها مطلقا .

والخلاصة : أن أية قراءة لا يعتد بها ، ولا تعتبر قرآنا إلا إذا كانت ركيزتها التلقين والتوقيف، والتلقى والمشافهة ، وكانت دعامتها الرواية ، والنقل والسماع ، ولا شيء وراء ذلك من رسم وكتابة .

قال الإمام أبو شامة فى شرح الشاطبية عند الكلام على (ولؤلؤا) فى سورة الحج ما نصه : ورسم بالألف فى الحج خاصة دون فاطر ، والقراءة نقل فما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى وليس اتباع الخط بمجرده واجبا : مالم يعضده نقل ، فإن وافق فيها ونعمت ، ذلك نور على نور : قال الشيخ السخاوى — تلميذ الإمام الشاطبي — وهذا الموضع أدل دليل على اتباع النقل فى القراءة ، لأنهم لو اتبعوا الخط ، وكانت القراءة إنما هى مستندة إليه لقرءوا هنا فى سورة الحج بالألف ، وفى الملائكة — فاطر — بالخفض .

قال الإمام أبو عبيد : ولولا الكراهة لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحب إلىّ ، فيكون في الحج بالنصب و فى فاطر بالخفض . انتهى .

الدليل الرابع على أن مصدر القراءات النقل لا الرسم :

ينجم عن رأى جولد زيهر ومن شايعه من الملاحدة ، وهو أن منشأ القراءات تجرد المصاحف من النقط والشكل ، أن يكون القرآن الكريم قد قرىء فى خير العهود ، عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد الصحابة ، وعهد التابعين ، بقراءات وأوجه لا يعرف الصحيح منها من غيره ، ولا المنزل منها من غير المنزل ، ولا المتواتر منها من غير المتواتر ، وبداهة العقل قاضية ببطلان هذا وفساده .

ثم إنه لا يستقيم فى حكمة الحكيم جل جلاله أن يكل أمر القرآن وهو أعظم دستور سماوى إلى العباد ، يقرؤه كل واحد منهم حسب ميله وهواه ، وحسب رغبته واختياره ، ويعبر كل منهم فى نطاق قدرته على التعبير والأسلوب ، والناس فى هذا متفاوتون تفاوتاً شاسعاً ، أقول : لا يستقيم هذا فى حكمة الحكيم لأن فيه تعريضا لنصوص القرآن للتناقض والتعارض ، والتخاذل والتهافت ، والتغيير والتحريف والخطأ والتصحيف .

الدليل الخامس :

لو كان مبعث اختلاف القراءات وتنوعها خلو المصاحف من النقط والشكل ، وكان كل قارىء يقرأ بقراءة يختارها ، من تلقاء

نفسه ، إذا كان الرسم محتملا لها ولم يكن مبعثها الوحى والمشافهة والتلقى من فيه صلى الله عليه وسلم لكان بعض القرآن من كلام البشر ، ولم يكن كله وحيا سماويا منزلا من عند الله تعالى ، ولو كان كذلك لذهبت أعظم خاصية من خصائصه ، تلك الخاصية التى امتاز بها القرآن عن سائر الكتب السماوية السابقة ، وهى الإعجاز ، ولو ذهبت عنه صفة الإعجاز لم يكن للتحدى به — بجميع قراءاته ورواياته — وجه ، ولم يكن لعجز العرب عن معارضته سر — حيث إن بعضه من وضع بنى جنسهم — ولم يكن للإيمان به والتعبد بتلاوته معنى أصلا لكن الله تعالى أمرنا بالإيمان به ، والتعبد بتلاوته ، وتحدى به سائر العرب . فعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله بل بأقصر سورة من سوره ، فحينئذ تكون صفة الإعجاز ملازمة له لا تفارقه ولا تنفك عنه .

إذاً لم يكن بعضه من كلام البشر بل كله من كلام الله عز وجل فلم يكن مبعث القراءات خلو المصاحف من النقط والحركات ، بل مبعثها الوحى والتلقى والمشافهة من فيه صلى الله عليه وسلم ، وهو المطلوب ..

الدليل السادس :

إن القرآن الكريم سجل على رسول الله ﷺ أنه لا يستطيع أن يبدل فى القرآن الكريم كلمة بكلمة ، أو حرفا بآخر .

وأشار إلى أن هذا التبديل معصية يترتب عليها العقاب الأخروى الشديد .

فقال تعالى فى سورة يونس :

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) آية ١٥ .

وقال تعالى فى سورة الحاقة :

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ) . آيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

فإذا كان الرسول ﷺ لا يستطيع أن يبدل فى القرآن الكريم شيئاً فهل يملك غيره ، صحابيا كان أم تابعيا أم غيرهما ، أن يضع كلمة مكان كلمة ، أو حرفا فى موضع حرف .

الدليل السابع :

إن الله تعالى وعد بحفظ كتابه من أن تمتد إليه يد العبث والتحريف التى امتدت إلى ما سبقه من الكتب السماوية فقال تعالى فى سورة الحجر :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) آية ٩ .

وقال تعالى فى سورة فصلت :

(وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ، لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ــ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . آيتا ٤١ ، ٤٢ .

ولا شك أن قراءته بالرأى والاختيار تفضى — من قريب أو من بعيد — إلى تعريض نصوصه للتغيير ، والتصحيف ، وذلك ينافى الوعد بحفظه ، ووصفه بأنه (لا يأتيه ٱلْبَٰطِلُ مِن بين يديه ولا من خلفه ــ) .

الدليل الثامن :

ثبت ثبوتاً قطعياً لا يدع مجالا لشك أو ريبة أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكن مصدرهم فى حفظ القرآن بقراءاته ورواياته الأخذ من المصحف ، لأنه لم يكن وجد بعدُ ، إنما كان مصدرهم

فى حفظه السماع من فيه صلى الله عليه وسلم ، والتلقى منه ، والأخذ عنه ، ومشافهتهم بالقرآن مباشرة مع حرصهم الحرص كل الحرص على حفظ وضبط كل مايسمعونه فى صدورهم ، وانتقاشه على صفحات قلوبهم ، ولذلك مدحوا بأن (أناجيلهم فى صدورهم) يعنى أنهم يستظهرونه ويحفظونه عن ظهر قلب ، وفى هذا إشارة إلى أن أهل الكتاب لا يمكنهم أن يقرءوا إلا فى الكتب من غير حفظ ولا استظهار .

الدليل التاسع :

ان من عرف حال الصحابة ، ومحبتهم لدينهم ، وتقديسهم لكتاب ربهم الذى يعتقدون فيه أنه مجمع شريعتهم ، ومناط سعادتهم ، ومعجزة نبيهم ، تلك العقيدة التى هونت عليهم مفارقة أوطانهم وأبنائهم ، والخروج عن أموالهم ورفيع جاههم ، بل كان ذلك التقديس يهوّن عليهم بيع نفوسهم وأرواحهم دفاعا عنه ، وذودا عن حياضه .

أقول :

إن من عرف حال هؤلاء الصحابة لا يعتريه أدنى ارتياب فى أنهم كانوا على اعتقاد راسخ ، ويقين ثابت بأن هذا الكتاب

وحى سماوى عن الله عز وجل لا دخل لأحد من البشر فيه بوجه من الوجوه ، وأنهم لو أحسوا بأن لأحد دخلا فيه ، فى أية ناحية من نواحيه بزيادة أو نقص ، أو ذكر أو حذف ، أو وضع كلمة مكان أخرى ، أو حرف فى موضع آخر ، فيكون بذلك عرضة للآراء المختلفة ، والمذاهب المتباينة ، لما رضيت نفوسهم الأبية باتباعه ، والاذعان لقوانينه وأحكامه ، لأن نفوسهم طبعت على تعشق الانطلاق والحرية ، ومقت الاستعباد ، والتقييد والعبودية .

الدليل العاشر :

إن من القراء العشرة من بلغ الذروة فى العربية ، وكان فيها إماماً يرحل إليه ويؤخذ عنه ، وله مذهب خاص فى النحو اشتهر به ، ومع ذلك كان فى القراءة لا يتعدى ما نقله عن أئمته ، وتلقاه عن شيوخه ، ولو خالف مذهبه فى العربية ، من هؤلاء الإمام أبو عمرو بن العلاء البصرى .

قال الأصمعى : قال لى أبو عمرو : لولا أنه ليس لى أن أقرأ إلا بما قرىء لقرأت كذا وكذا من الحروف كذا وكذا ، فكان أبو عمرو يخالف مذهبه فى النحو اتباعا للأثر .

قال ابن خالويه فى الحجة : أدغم أبو عمرو وحده الراء فى اللام من (يغفر لكم) وما شاكله فى القرآن وهو ضعيف عند البصريين .

وورد عن الكسائى مثل ما ورد عن أبى عمرو ، فكانت قراءته فى بعض المواضع تخالف مذهبه فى النحو .

وليس هناك تفسير لذلك إلا أن هؤلاء الأئمة كانوا يستندون فى قراءتهم إلى النقل والرواية لا إلى القواعد والدراية .

قال سفيان الثورى : ما قرأ حمزة حرفا من كتاب الله تعالى إلا بأثر ، وكان ليحيى ابن سلام اختيار فى القراءة ، ولكن من طريق الآثار ، وكان الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام ، يختار من القراءات ما يوافق العربية والأثر جميعا .

الدليل الحادى عشر :

أجمع المسلمون على تواتر قراءات الأئمة العشرة ، وثبوتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق القطع واليقين .

والتواتر — كما عرفه علماء الأصول — اتفاق طائفة على أمر تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، أو وقوع الكذب منهم صدفة

واتفاقا ، فالمتواتر من الأخبار ما يرويه جماعة تحيل العادة تواطؤهم وتوافقهم على الكذب ، أو وقوع الكذب منهم صدفة واتفاقا عن جماعة كذلك من مبدأ السند إلى منتهاه ويكون مستند الطبقة الأخيرة منه الحِسّ من مشاهدة أو سماع ، فلا يتحقق التواتر إلا إذا وجد العدد الموصوف بما ذكر فى كل الطبقات من بدء السند إلى نهايته .

فلو فقد هذا العدد فى طبقة من طبقات السند انتفى التواتر ، والمتواتر يفيد العلم لسامعه ، وهذا المعنى متحقق فى قراءات الأئمة العشرة وهم : نافع بن أبى نعيم ، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع ، المدنيان ، وعبد الله بن كثير المكى ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويعقوب بن إسحاق البصريان ، وعبد الله بن عامر الشامى ، وعاصم ابن أبى النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن حمزة الكسائى ، وخلف بن هشام البزّار الكوفيون .

فقد روى قراءات هؤلاء الأئمة معظم الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلقوها من فيه مشافهة ، ورواها عن الصحابة التابعون ، وأتباع التابعين . . ومن هؤلاء وهؤلاء القراء العشرة المذكورون ، ورواها عنهم أمم لا تحصى كثرة وعددا فى جميع

العصر والأجيال ، لم تخل أمة من الأمم ، ولا عصر من العصور ، ولا مصر من الأمصار إلا وفيه من الكثرة الكاثرة ، والجم الغفير والجمع الوفير من يروى قراءات هؤلاء الأئمة ويحذقها ، وينقلها لغيره إلى وقتنا هذا ، ولن تزال الأمم إن شاء الله تعالى على تعاقبها وتلاحقها وتتابعها تتعاهد هذه القراءات وترويها وتنقلها لمن بعدها وتقرؤها وتقرىء بها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهذا مصداق قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) .

ومن الأدلة على تواتر قراءات القراء العشرة ـ غير ما تقدم ـ ما يلى :

١ — إن هذه القراءات أبعاض القرآن وأجزاؤه ، وقد ثبت القرآن كله بجميع أبعاضه وأجزائه بطريق التواتر ، فيكون كل جزء منه ثابتا بطريق التواتر ضرورة ثبوت الأجزاء بثبوت الكل .. لأنه إذا ثبت الكل بطريق التواتر كان كل جزء منه ثابتا بهذا الطريق بالضرورة فمثلا قراءة لفظ (ٱلصِّرَٰطَ) بالصاد بعض من القرآن ، وقراءته بالسين بعض آخر منه ، فكلتا القراءتين متواترة ، إذ الطريق التى وصلت إلينا منها إحدى القراءتين هى نفس الطريق التى وصلت إلينا منها القراءة الأخرى ، فيكون كل منهما قرآنا ،

وإلا لو قلنا إن إحدى القراءتين متواترة دون الأخرى ، وطريق ورودهما واحدة لكان ذلك تحكما باطلا ، وترجيحا لإحدى القراءتين المتساويتين على الأخرى دون مرجح وهو باطل فحينئذ تكون القراءتان متواترتين وهو المطلوب .

٢ — ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) أخرجه البخارى ومسلم من طرق متعددة قوية تفيد بمجموعها تواتر هذا الحديث بل صرح بعض العلماء بتواتره، منهم : الإمام القاسم بن سلام والحاكم النيسابورى والجلال السيوطى فى كتابيه الإتقان ، وتدريب الراوى ، وعلى تواتر هذا الحديث يكون مفيدا العلم والقطع بإنزال القرآن على الأحرف السبعة ، وقد قام الدليل على نسخ ما عدا القراءات العشر فبقيت القراءات العشر ، على القطع بثبوتها .

٣ — نصوص علماء الإسلام :

(أ) قال الإمام القرطبي : (وقد أجمع المسلمون فى جميع الأمصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة فيما رأوه ورووه

من القراءات ، وكتبوا فى ذلك مصنفات ، واستمر الإجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب) .

وعلى هذا . . الأئمة المتقدمون ، والفضلاء المحققون كابن جرير الطبرى والقاضى أبى بكر بن أبى الطيب وغيرهما . انتهى

(ب) وقال القاضى أبو بكر بن أبى الطيب فى كتابه الانتصار : (لم يقصد عثمان — رضى الله عنه — قصد أبى بكر فى جمع القرآن بين لوحين وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المتواترة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك) . انتهى

(ج) وقال ابن عطية : (ومضت الأعصار والأمصار على قراءات الأئمة السبعة بل العشرة ، وبها يصلى لأنها ثبتت بالإجماع) . انتهى

(د) وقال الإمام المحقق ابن الجزرى فى (منجد المقرئين) : وقال العلامة ابن السبكى : (القراءات السبع التى اقتصر عليها الشاطبى والثلاث التى هى قراءة أبى جعفر ، وقراءة يعقوب ، وقراءة خلف متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، وكل حرف انفرد به واحد من العشرة معلوم من الدين بالضرورة أنه منزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكابر فى شىء من ذلك إلا جاهل ، وليس

تواتر شيء من ذلك مقصورا على من قرأ بالروايات ، بل هى متواترة عند كل مسلم يقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ولو كان مع ذلك عاميا جلفا لا يحفظ من القرآن حرفا ، وحظ كل مسلم وحقه أن يدين الله تبارك وتعالى ، وتجزم نفسه بأن ما ذكرناه متواتر معلوم باليقين لا تتطرق الظنون ولا الارتياب إلى شيء منه).
والله تعالى أعلم.

وقال ابن الجزرى فى (منجد المقرئين أيضاً : كل قراءة وافقت العربية مطلقاً ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ، ولو تقديراً ، وتواتر نقلها ، هذه هى القراءة المتواترة المقطوع بها ، ومعنى العربية مطلقاً أى بوجه من الإعراب ، نحو قراءة حمزة (والأرحام) بالجر ، وقراءة أبى جعفر (ليُجزَى قوما) .

ومعنى أحد المصاحف العثمانية واحد من المصاحف التى وجهها الخليفة عثمان إلى الأمصار ، كقراءة ابن كثير فى الموضع الأخير من سورة التوبة (تجرى مِن تحتِها الأنهر) بزيادة من فانها لا توجد إلا فى المصحف المكى .

ومعنى ولو تقديراً ما يحتمله رسم المصحف كقراءة من قرأ

(مالك يوم الدين) بالألف ، فإنها كتبت بغير الألف فى جميع المصاحف ، فاحتملت الكتابة أن تكون (مالك) بالألف ، وفعل بها كما فعل باسم الفاعل من قوله : (قادر صالح) ونحو ذلك مما حذفت منه الألف للاختصار وهو موافق للرسم تقديراً .. ونعنى بالتواتر ما رواه جماعة عن جماعة كذا إلى منتهى السند وهو يفيد العلم من غير تعيين عدد على الصحيح .

والذى جمع فى زماننا هذه الأركان الثلاثة هو قراءات الأئمة العشرة التى أجمع الناس على تلقيها بالقبول وهم : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وخلف ، أخذها الخلف عن السلف إلى أن وصلت إلى زماننا .. فقراءة أحدهم كقراءة الباقين فى كونها مقطوعاً بها .

ثم قال ابن الجزرى بعد كلام :

فالذى وصل اليوم إلينا متواتراً وصحيحاً مقطوعاً به مجمعاً عليه غير منازع فيه متلقى بالقبول هو قراءة الأئمة العشرة ورواتهم المشهورين ، هذا الذى تحرر من أقوال العلماء ، وعليه الناس اليوم بالشام والعراق ومصر والحجاز .

ثم نقل ابن الجزرى عن كثير من أئمة الإسلام مثل : محيي السنة أبى محمد الحسن بن مسعود البغوى ، وحافظ المشرق ، المجمع على فضله أبى العلاء الحسن بن أحمد الهمدانى والحافظ المجتهد أبى عمرو بن الصلاح ، والحافظ مجتهد العصر أبى العباس أحمد بن تيمية ، والإمام أبى الحسن السبكى وولده قاضى القضاة ، نقل ابن الجزرى عن هؤلاء وأمثالهم من الأعلام تواتر القراءات العشر . انتهى .

وقصارى مايقال فى ذلك أنه لم يظفر كتاب من الكتب السماوية بما ظفر به القرآن الكريم من ثبوته ثبوتاً قطعياً بطريق التواتر الذى يدرأ كل شك ويدفع كل ارتياب ، ويدل على أن الصحابة رضى الله عنهم تلقوه من فيه ﷺ بقراءاته ورواياته ، ولقنوه من بعدهم بقراءاته وهيآته وطرق أدائه ، فى ضبط وأمانة وثقة ، هى مضرب الأمثال ، فلم يضيعوا منه جملة ، ولم يغفلوا منه كلة ، ولم يهملوا منه حرفاً ، أو حركة أو سكوناً ، ولم يدر بخلدهم أن يبدلوا منه كلمة بأخرى ، أو حرفاً بآخر ، وقد نقله عن الصحابة التابعون على هذا الوجه من الإحكام والتحرير ، والإتقان والتجويد .

ثم نقله عن التابعين الأمم المتعاقبة ، والأجيال المتلاحقة ، أمة

بعد أمة ، وجيلا إثر جيل ، إلى أن وصل إلينا ، ولن تزال الأمم تتعاهده وترويه وتنقله لمن بعدها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا مصداق قوله تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ)[1] . .

---

(١) آية ٩ من سورة الحجر .

بيان الحق فى الآيات التى استشهد بها جولد زيهر

وانرجع إلى الآيات التى ضربها جولد زيهر أمثلة لما قال . . .

أما قوله تعالى فى سورة الأعراف آية ٤٨ :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

فلم يقرأ (تستكبرون) بالثاء المثلثة بدلا من الباء الموحدة أحد من القراء العشرة ، ولا أحد من القراء الأربعة الزائدين على القرا العشرة ، فليست هذه القراءة قراءة متواترة ، ولا مشهورة ولا صحيحة ولا شاذة ، بل هى قراءة مردودة بائدة ، لم يعبأ بها أحد من علماء القراءات ، ولم يركن إليها ، ولم يقم لها أئمة الأداء وشيوخ الإقراء وزناً .

وحسبنا دليلا على نكارتها أنها لم تسند إلى قارىء معين ، ولا إلى راو معروف، وهذا من أبين البراهين على أن المعتبر فى القراءات إنما هو النقل والسند لا الرسم والخط .

وأما قوله تعالى فى سورة الأعراف آية ٥٧ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾

فقد قرأ عاصم (بشراً) فى هذه الآية بالباء التحتية الموحدة المضمومة مع سكون الشين ، وقرأ المدنيان والمكى والبصريان بالنون الفوقية الموحدة المضمومة مع ضم الشين ، وقرأ ابن عامر بالنون المضمومة مع سكون الشين ، وقرأ حمزة والكسائى وخلف بالنون المفتوحة مع سكون الشين ، وكلها قراءات واردة بطريق التواتر مقطوع بثبوتها .

وأما قوله تعالى فى التوبة آية ١١٤ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾

فالقراءة الثابتة المتواترة فى الآية (إياه) بكسر الهمزة والياء التحتية المثناة المشددة ، وقرئ (أباه) بفتح الهمزة والباء الموحدة التحتية المخففة .

وهذه القراءة — وإن كان المعنى يسيغها ، ورسم المصحف يحتملها — شاذة لم يقرأ بها أحد من الثقات الأثبات الذين اعتمدت

قراءاتهم ، وتلقيت بالقبول ، فلا يحفل بها ، ولا يلتفت إليها ، فلو كانت القراءات ناشئة عن الخط لكانت هذه القراءة ثابتة معتبرة معتمدة ، لكن هذه القراءة لم تعتمد ولم تثبت ، فلم تكن القراءات ناشئة عن الخط بل عن الرواية والسند .

وأما قوله تعالى فى سورة النساء آية ٩٤ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾

فقد قرأ حمزة والكسائى وخلف (فتثبتوا) وقرأ غيرهم (فتبينوا) ، والقراءتان صحيحتان ثابتتان بطريق التواتر ، وصدق جولد زيهر — وقد يصدق الكذوب — فى قوله : والهيكل المرسوم (فتىسوا) يحتمل الوجهين .

وعلى كل حال لا تسبب هذه الاختلافات وما شابهها فرقاً من جهة المعنى العام ، ولا من جهة الاستعمال الفقهى . انتهى .

وإن تعجب بعد ذلك فعجب قول جولد زيهر فى صفحة ١٠ فى معرض الكلام على قوله تعالى فى سورة البقرة آية ٥٤ :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قال : وهذا ينطبق فى الواقع على ماجاء فى سفر الخروج فصل ٣٢ فصلة ٢٧ الذى هو مصدر الكلمات القرآنية ، فإن هذا القول — مع كونه افتراء على الله تعالى ، وكذباً صارخاً ، ورمياً للقرآن بما هو منه براء — يتناقض تناقضاً مكشوفاً مع قوله فى صفحة ٦ فى شأن القرآن : (إن كل كلمة منه ، وكل حرف من حروفه يسجل كلام الله تعالى الذى سجل نصه المعتمد منذ القدم فى اللوح المحفوظ ، ومن هذا اللوح نزل به ملك الوحى شفاهاً على الرسول المختار . انتهى .

إن هناك إجماعاً من العلماء — إسلاميين وغير إسلاميين — على أن مصدر الكتب السماوية كلها هو اللوح المحفوظ لا فرق فى ذلك بين القرآن وغيره من الكتب السماوية .

ثم استمع إليه وهو يصمم على أن تنوع القراءات من محض الرأى والاختيار لا من النقل عن السنة والآثار .

يقول فى الآية التى ذكرنا نصها آنفاً ٥٤ من سورة البقرة :

وربما كان مفسرون قدماء معتد بهم ومنهم قتادة البصرى المتوفى سنة ١١٧ هجرية قد وجدوا هذا الأمر بقتل أنفسهم ، أو بقتل الآثمين منهم أمراً شديد القسوة ، وغير متناسب مع الخطيئة فآثروا تحلية الحرف الرابع من هيكل الحروف الصامتة (فاقتلوا أنفسكم) بنقطتين من أسفل بدل التاء المثناة من اعلى فقرءوا (فأقيلوا أنفسكم) بمعنى : حققوا الرجوع عما فعلتم بالندم على الخطيئة المقترفة ، وهذا المثال يدل فعلا على أن ملاحظات موضوعية قد شاركت فى سبب اختلاف القراءة خلافاً للأمثلة السابقة التى نشأ الاختلاف فيها من مجرد ملابسات فنية ترجع إلى الرسم . انتهى .

وردا عليه نقول :

١ — قد بينا — فيما سبق — بالحجج النواهض ، والبراهين الدوامغ أن مصدر القراءات المعتمدة النقل والرواية ، والتلقى والمشافهة ولا مجال للرأى والاختيار فيها ، وأن القراءات نشأت قبل أن يجمع القرآن فى الصحف فى عهد أبى بكر ، وقبل أن تدون المصاحف فى عهد عثمان ، وأن اختلاف القراءات لم ينشأ من إغفال المصاحف من نقط الحروف وشكلها ، ولا من هيئتها ورسمها .

وقراءة قتادة (فأقيلوا أنفسكم) لم ينقلها أحد من القراء الأثبات، وليس لها سند يعتمد عليه، ولا أصل يرجع إليه، وقتادة البصرى لم ينظم فى سلك القراء، ولم تنسب إليه قراءة ما إلا هذه القراءة التى لم يشركه أحد فيها .

٢ — نقل عن قتادة نفسه أنه فسر الآية بما يخالف هذه القراءة، فقد نقل عنه شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبرى فى تفسيره أنه — قتادة — قال : (فاقتلوا أنفسكم) قاموا صفين فقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم كفوا . . قال قتادة : كانت شهادة للمقتول وتوبة للحى انتهى . وقال ابن كثير فى تفسيره : وقال قتادة أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضاً حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل فجعل لحيهم توبة وللمقتول شهادة . انتهى ..

وهذان النصان يدلان دلالة واضحة لاخفاء فيها ولا غموض، على أن قتادة يرى أن المراد من القتل فى الآية الكريمة القتل الحقيق، وهذا مايراه جمهور المفسرين خلفاً عن سلف، وحينئذ يكون رأى قتادة فى تأويل الآية مخالفاً لقراءته فيها، فالذى نكاد نجزم به أن هذه القراءة مدسوسة على قتادة، إذ لو صحت عنه لكان رأيه

في تأويل الآية ما نقله عنه جولد زيهر أن المراد بالقتل الندم على الفعل ، ولكنه يرى أن المراد بالقتل القتل الحقيقي كما نقله عنه الشيخان الجليلان : ابن جرير وابن كثير ، فحينئذ تكون نسبة القراءة إليه غير صحيحة .

والخلاصة : أن هذه القراءة قراءة منكرة مخالفة للنقل الصحيح عن قتادة في معنى الآية ، فلا يلتفت إلى هذه القراءة ، ولا يعول عليها .

ثم ننتقل إلى آيتي ٨ ، ٩ من سورة الفتح وهما :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

ومحصل ما قاله فيهما أن الضمير في (وتعزروه) يرجع إلى الله تعالى ، والتعزير معناه المساعدة والمعونة .

ولما كان هذا المعنى لا يليق بالله سبحانه وتعالى ، إذ هو الغني المطلق عن جميع عباده ، لا يحتاج إلى من يساعده ويعينه — عدل بعضهم عن القراءة بالراء لإيهامها مالا يليق به تعالى — إلى القراءة بالزاي المعجمة لأن معناها التعظيم وهو يليق به سبحانه ، ثم عاد

فاستشعر أن فى القرآن آيات تفيد أن من العباد من ينصرون الله عز وجل كقوله تعالى فى سورة الحج آية ٤٠ :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾

وقوله تعالى فى سورة محمد آية ٧ :

﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾

وقوله تعالى فى سورة الحشر آية ٨ :

﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾

ثم أجاب عن الآيات المذكورة بأن لفظ (نَصَرَ) — وإن كان معناه مرادفاً للمساعدة والمعونة — قد يستعمل ويراد منه النصر الأدبى بالطاعة والامتثال دون أن يصور تصويراً جهيراً معنى المساعدة المادية ، كما يصوره لفظ (عزر) المستعمل هنا . انتهى .

وأقول :

اختلف المفسرون فى مرجع الضمائر الثلاثة فى الآية الكريمة (وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) . . فذهب فريق منهم إلى أن

الضميرين الأولين فى (وتعزروه وتوقروه) يرجعان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله (ورسوله) لأنه أقرب مذكور فى الآية ، ولقوله تعالى فى سورة الأعراف آية ١٥٧ :

(فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ) . .

إذ الضمير فى (وعزروه) يعود على الرسول قطعاً ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، ويشهد بعضه لبعض ، والمراد من تعزير الرسول فى الآيتين مساعدته ومعونته بالنفس والمال فى سبيل نصرة دينه ، وعلو كلمته ، ولا غضاضة فى إضافة التعزير — بالمعنى المتقدم — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — والضمير فى وتسبحوه يعود على الله تعالى لا محالة ، إذ التسبيح لا يكون إلا له سبحانه .

وذهب فريق آخر إلى أن الضمائر الثلاثة تعود على الله تعالى لأن الأصل فى الضمائر المتعددة المنظومة فى مسلك واحد أن يكون مرجعها واحداً والمراد من تعزير الله تعالى تقوية دينه ونصرة شرعه .

وأما القراءة بالزاى بدلا من الراء فلم تعتمد عند أحد من القراء العشرة ، ولا عند ذوى القراءات الشاذة ، إذ لم تستند إلى نقل ورواية ، وإن كان معناها صحيحاً ، ورسم المصحف يحتملها ، وحسبنا

هذا شاهداً على أن الرسم ليس هو السبب فى إختلاف القراءات ، إنما السبب هو النقل الصحيح ، والسند السليم .

وقد آن لنا أن نبحث القراءات التى نشأت — فى زعمه — من تجرد المصحف من الشكل :

١ — قوله تعالى فى سورة الحجر آية ٨ :

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾

ذكر جولد زيهر فيها ثلاث قراءات :

الأولى : بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة مع كسر الزاى وتشديدها .

الثانية : بتاء مفتوحة فنون ساكنة مع كسر الزاى وتخفيفها .

الثالثة : بتاء مضمومة فنون ساكنة مع فتح الزاى مخففة .

وأقول : لا شك أن رسم المصحف يحتمل هذه القراءات الثلاث ، لكن الذى ثبت متواتراً من القراءات فى هذه الآية ثلاث قراءات :

الأولى : هى القراءة الأولى التى ذكرها ، وهى قراءة حفص وحمزة والكسائى وخلف البزار .

الثانية : بتاء مثناة فوقية مضمومة فنون مفتوحة مع فتح الزاى وتشديدها ، وهى قراءة أبى بكر شعبة بن عياش عن عاصم الكوفى .

الثالثة : بتاء مثناة فوقية مفتوحة فنون مفتوحة مع فتح الزاى مشددة ، وهى قراءة نافع وأبى جعفر المدنيين ، وابن كثير المكى ، وأبى عمرو ويعقوب البصريين ، وابن عامر الشامى .

وأما القراءتان الأخريان اللتان ذكرهما جولد زيهر فليستا من القراءات المتواترة ، ولا من القراءات الصحيحة ، ولا من القراءات الشاذة ، ولا يعرف أن أحداً قرأ بإحدى هاتين القراءتين ، فهما من صنعته واختراعه ، وهما جديرتان بالرفض والإنكار ، وهذا من الأدلة الصادقة ، والبراهين القوية على أن إهمال الشكل والحركات فى المصحف لا دخل له فى القراءات مطلقاً اتفاقاً أو اختلافاً .

ومما يعضد هذا أن القراء مع اختلافهم فى قراءة قوله تعالى فى سورة الحجر آية ٨ :

(مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ) . على ما سمعت .

قد اتفقوا على قراءة الآية ٢١ من نفس السورة وهى :

(وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) .

بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة مع كسر الزاى مشددة .

٢ — قوله تعالى فى سورة الرعد آية ٤٣ :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

قرأ القراء العشرة (ومن) بفتح الميم ، و (عنده) بفتح الدال ، و (علم الكتاب) بكسر العين وسكون اللام على أن من اسم موصول معطوف على لفظ الجلالة و (عنده علم الكتاب) جملة تقدم فيها الخبر على المبتدأ وهى صلة للموصول . والمعنى : كفى بالله وبالذى عنده علم الكتاب من اليهود والنصارى شهيداً على أننى رسول الله حقا .

وقرأ الحسن والمطوعى (ومن عنده علم الكتاب) بكسر ميم ومن وكسر دال وهاء عنده ، على أن من حرف جر ، والجار والمجرور خبر مقدم وعلم الكتاب مبتدأ مؤخر ومضاف إليه ، وهى قراءة شاذة لم تثبت بطريق التواتر ، والقراءة لا تعتمد ولا تعتبر قرآناً إلا إذا ثبتت بطريق التواتر .

وقرىء (ومن عنده) بكسر الميم والدال أيضاً ، وعلم بضم

العين وكسر اللام وفتح الميم على أنه فعل ماض مبنى للمفعول ، والكتاب مرفوع على أنه نائب فاعل ، وهذه القراءة أشد شذوذاً من الأولى .

وقرىء أيضاً مثل هذه القراءة مع تشديد اللام وهى أوغل وأعمق فى الشذوذ من سابقتها ، ولا يخفى أن الرسم يحتمل هذه القراءات كلها ، ولكن لم يصح منها إلا الأولى ، وحسبك هذا حجة على أن مرجع القراءات إنما هو الأثر والنقل ، لا الكتابة والرسم ، وشاهداً على أن ركيزة كل قراءة هى المشافهة والتلقى ، ودعامتها النقل والسماع .

نقض زعم جولدزيهر وجود تناقض فى القراءات

زعم جولد زيهر أن بين بعض القراءات وبعضها تناقضا فى المعنى ، وتعارضاً فى المراد ، وتدافعاً فى المقصود ، بحيث لا يمكن الجمع بين المعنيين ، ولا التوفيق بين المرادين ، ثم ساق لذلك مثلا صدر سورة الروم :

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾

قال : وفى بعض الأحيان قد تؤدى القراءة إلى ترك معنى وإحلال معنى آخر مناقض له ، فمن الأمور التاريخية الموجودة فى القرآن ما جاء فى أول سورة الروم ، ثم ذكر الآيات السابقة ، وتفسير ذلك عند المفسرين أن ذلك للرد على أهل مكة عندما علموا بانتصار الفرس على الروم سنة ٦١٦ ميلادية ، وقد فرح المشركون بانهزام الروم ، وكانوا يميلون إلى الفرس ، وكان الأمر على عكس ذلك عند النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين الذين كانوا يميلون إلى الروم ، وهم أهل كتاب وأنه سينقلب الأمر بعد وقت قصير وينتصرون .

وقد رأى المسلمون فى ذلك دليلا على النبوة لما فيه من تنبؤ النبى صلى الله عليه وسلم بانتصار هرقل على الفرس سنة ٦٢٥ ميلادية قبل حصوله ، وإن كنا لا [illegible]رف تحديد مثل هذه الوقائع التاريخية .

والذى نراه أن المسألة كانت على وجه الرجاء ، وأنه وإن يكن الروم قد غُلبوا الآن فإنهم سَيَغْلبون بعد وقت قصير ، ولكن قراءة الآية على هذا الشكل لم يتفق عليها عند جميع القراء ، فقد قرأ أكثرهم :

(غلَبَتِ الرُّومُ ، فِىَ أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غلبهم سَيَغْلَبُونَ) .

بالبناء للفاعل فى (غلبت) وبالبناء للمفعول فى سيغلبون ، وأن ذلك يتعلق بانتصار الروم على بعض القبائل العربية بالشام ، ونحن نرى أن القراءتين متناقضتان فى المعنى ، فالغالبون فى القراءة المشهورة هم المغلوبون فى القراءة الأخرى[1] .

وفى ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار — بعد أن ذكر نحو ما سبق :

---

(١) المذاهب الاسلامية ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر .

(بيد أن الجميع لم يتفقوا على قراءة النص كما سبق ، بل قرءوا أيضاً : (غلبت الروم) بالبناء للفاعل ، وهذا يرجع إلى أن نصراً أحرزه الروم توا على قبائل عربية تقع على الحدود السورية (فى أَدْنَى ٱلأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِم) من إضافة المصدر للفاعل سيغلبون بالبناء للمفعول ، فى بضع سنين ، والمسلمون الذين أجازوا هذه القراءة يروون أخباراً بالنصر الذى أحرزته الجماعة الإسلامية الفتية على البيزنطيين ، بعد هذا الوحى بتسع سنين ، ونرى أن فى القراءة المشهورة والقراءة المخالفة لها تأويلين متغايرين تغايراً بعيدا ، فالمنتصرون فى القراءة المشهورة هم المنهزمون فى القراءة المخالفة ، والفعل المبنى للفاعل فى الأولى مبنى للمفعول فى الثانية ، وإذاً فهما قراءتان ، وتأويلان لجملة واحدة من كلام الله متعارضان إلى أبعد مدى) . انتهى .

وأقول : تضمنت هذه المقالة الأمرين الآتيين :

١ — إن الاخبار بأن الروم ستغلب الفرس كان على وجه الرجاء والأمل من النبى صلى الله عليه وسلم لا على وجه الثقة واليقين ، ومعنى هذا أن الآية ليس فيها إخبار بالمغيب حتى تكون آية باهرة

دالة على صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن القرآن من عند الله تعالى ، لأن من حق كل إنسان أن يرجو ما يشاء ، وتطمع نفسه فى أى مرغوب ، لا حجر عليه فى ذلك ما دام لا يعدو فى رجائه الممكن ، ولا تطمع نفسه فى المستحيل .

٢ — إن بين القراءتين تناقضا ظاهراً حيث إن القراءة الثانية جعلت المغلوب فى القراءة الأولى غالباً ، وجعلت الغالب فى القراءة الأولى مغلوباً ، وهذا تناقض بين .

أما الأمر الأول فهو باطل ومردود ، إذ ليس فى الآية كلمة واحدة تدل على رجاء ، أو تشعر بأمل ، أو تلوح بتَمَنٍّ ، وإنما هى خبر جازم ، خبر المخبر الواثق المتيقن أن مضمون خبره سيتحقق لا محالة بمقتضى الوحى الإلهى الكريم .

ولذلك حدد الزمن الذى ينتصر فيه الروم على الفرس بأنه فى بضع سنين .

أما الذى يتكلم متطلعا إلى رغبة ، أو متشوفا إلى أمل فلا يستطيع أن يحدد الزمن الذى يتحقق فيه مرغوبه ، أو يبرز إلى الوجود مؤمله ومطلوبه ، فهذا التحديد يدل على أنه من عند الله

قطعاً ، وعلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما هو مخبر عن الله فحسب ، لا يتكلم عن رغبة ، ولا يتحدث فى أمل .

لقد كان الإخبار بهذا النصر ـ نصر الروم على الفرس وبأنه كائن فى وقت معين ـ إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون ، ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفى من دلائله أنها غزيت فى عقر دارها ، وهزمت فى بلادها ، كما قال تعالى :

(فِى أَدْنَى ٱلْأَرْضِ) .

فلم يكن أحد يظن أن تقوم لها بعد ذلك قائمة ، فضلا عن أن يحدد الوقت الذى سيكون لها فيه النصر ، ولذلك كذب المشركون به ، وتراهنوا على تكذيبه .

على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث حيث يقول فى نفس السورة آيتا ٤ ، ٥ :

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ ٱللَّهِ) .

إشارة إلى أن اليوم الذى يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه ههنا نصر للمسلمين على المشركين .

وإذا كان كل واحد من النصرين فى حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يوم واحد ؟ .

لذلك أكده أعظم التأكيد بقوله فى نفس السورة أيضاً :

(وَعْدَ ٱللهِ لاَ يُخْلِفُ ٱللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) . آية ٦ .

ولقد صدق الله تعالى وعده ، وتحققت النبوءة الصادقة ، فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخين ، فى غضون سبع سنين ، كما أخبر العليم الخبير .

وكان يوم نصرها هو اليوم الذى وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين فى غزوة بدر الكبرى كما رواه الترمذى عن أبى سعيد ، ورواه الطبرى عن ابن عباس وغيره .

وقد يقال : هلا حدد القرآن عدد السنين بلفظ أصرح من لفظ (البضع) المتراوح بين الثلاث والتسع ؟ أليس الله أعلم بيوم النصر وساعته ؟ بَلْهَ سنته ؟ .

فنقول : ولكن الناس فى اصطلاحهم الحسابى لا يجرون على

طريقة واحدة ، فمنهم من يحسب بالشمس ، ومنهم من يحسب بالقمر ، ومنهم من يكمل الكسور ، ومنهم من يلغيها ، فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ، ليكون أقطع للشبهة ، وأبعد عن كل جدل ومكابرة .

ثم إنه ربما تراخى الأمر بين بشائر النصر ووقائعه الفاصلة ، فيقع اختلاف الحاسبين فى تعيين الوقت الذى يضاف إليه النصر والغلبة ، ولذا حسن التعبير بلفظ (فى بضع) دون أن يقال (بعد بضع) .

فحينئذ تكون الآية من الإخبار بالمستقبل المغيّب الخاص علمه بالله تعالى ، وتكون من براهين ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن من قول الله تعالى ، وليس من قول البشر .

وأما الأمر الثانى فنقول فيه : إن فى الآية الكريمة قراءتين :

القراءة الأولى : (غُلِبَت) بضم الغين وكسر اللام على البناء للمفعول (سَيَغْلِبُون) بفتح الياء وكسر اللام مبنياً للفاعل ، وهى القراءة المتواترة .

والمعنى : غلب الفرس الروم فى أدنى الأرض — أى أقرب

الأرض مما يلى مكة ، وكانت الموقعة بين أذرعات وبصرى ، وهى أقرب بلاد الشام ، بالقياس إلى مكة .

وقيل : كانت الموقعة بالجزيرة فتكون أقرب بالقياس إلى أرض كسرى فى العجم ، وقيل كانت بالأردن وفلسطين فتكون أقرب بالقياس إلى بلاد الروم ، وهم — أى الروم من بعد غلبهم — أى غلب الفرس لهم ، وانتصارهم عليهم من إضافة المصدر للمفعول (سيغلبون) — أى سيغلب الروم الفرس فى بضع سنين .

وسبب نزول الآية الكريمة أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين فى مكة قبل الهجرة حين غلبت فارس الروم ، واستولت على ما كان تحت يدها من جزيرة العرب ، وكان الروم أهل كتاب ، دينهم النصرانية ، وكان المجوس غير موحدين ديانتهم المجوسية ، ولما انتصرت فارس على الروم فرح المشركون ، وأخذوا من هذا الانتصار فألا ، وهو أن ملة الكفر ستغلب ملة الإيمان ، فكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأن المشركين وفارس ليسوا بأهل كتاب ، ولا إيمان ببعث ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفرس ، لأن الروم أهل كتاب ، فهم إلى المسلمين أقرب من غيرهم .

أقول : كان المشركون يجادلون المسلمين ، ويقولون لهم : إن الروم أهل كتاب وقد غلبتهم الفرس وهم مجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم ، فنزلت الآية تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم على الفرس فى بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين .

وإذا نظرنا فى الآية نظرة صادقة نجد أن معناها ، وسبب نزولها يعانقان القراءة المتواترة أتم معانقة ، ولا يبعدان عنها قيد شعرة .

القراءة الثانية : ونسبت لعلى بن أبى طالب ، وأبى سعيد الخدرى . وغيرهما (غَلَبَت) بفتح الغين واللام على البناء للفاعل (سَيُغْلَبُونَ) بضم الياء وفتح اللام على البناء للمفعول ، وعلى هذه القراءة تكون إضافة غلبهم من إضافة المصدر للفاعل .

والمعنى على هذه القراءة — أن الروم تغلبوا وانتصروا على سواد الشام ، وسيغلبهم المسلمون فى بضع سنين ، وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزول الآية ففتحوا بعض بلادهم .

وتأويل الآية على هذا الوجه — على هذه القراءة — لا يناقض

معنى الآية على القراءة المتواترة ، فإن القراءة المتواترة أفادت أن الفرس تغلبوا على الروم ، وأن الروم سيتغلبون على الفرس بعد بضع سنين ، والتاريخ حقق ذلك .

وهذه القراءة أفادت أن الروم تغلبوا على سواد الشام ، واستولوا على بيت المقدس ، وانتزعوه من يد الفرس ، وقد كان السلطان فى يد الفرس سنين طويلة قبل هذا ، ولم يمض على هذا النصر إلا بضع سنين حتى حارب المسلمون الروم ، واستولوا على جميع ما كان تحت أيديهم من بيت المقدس وغيره من بلاد الشام .

فهذا المعنى الذى أفادته هذه القراءة لا يتناقض مع المعنى الذى أفادته القراءة الأولى ، لأن التناقض لا يتحقق إلا إذا توارد شيئان متضادان على أمر واحد فى زمن واحد ، كما إذا قيل إن فلاناً انتصر على فلان فى ساعة كذا ، وهزمه فلان فى نفس الساعة التى انتصر عليه فيها ، فقد اجتمع على فلان النصر والهزيمة فى زمن واحد ، فإن توارد شيئان متضادان على أمرين فلا تناقض ، كما إذا قيل إن فلانا انتصر على فلان ، وانهزم من فلان آخر ، كذلك إذا توارد شيئان متضادان على أمر واحد فى زمنين مختلفين فلا تناقض

كما إذا قيل إن فلانا انتصر على فلان فى وقت كذا وانهزم معه فى وقت آخر ، فـكذلك تغلب الفرس على الروم فى زمن ثم تغلب الروم على الفرس فى زمن آخر لا يعتبر من التناقض فى شىء .

والخلاصة : أن فارس تغلبت على الروم فى أدنى الأرض ، وبعد بضع سنين تغلبت الروم على فارس ، هذا مفاد القراءة الأولى المتواترة ، أو أن الروم تغلبت على فارس فى أدنى الأرض ثم بعد بضع سنين تغلب المسلمون على الروم ، وهذا مفاد القراءة الثانية ، ولا تنافى بين معنى القراءتين كما يظهر بأدنى تأمل .

هذا صفوة ما قرره العلماء فى الجمع بين القراءتين ، والتوفيق بين معنيهما ، ومما يدعو إلى الدهشة والعجب أن جولد زيهر مع زعمه التناقض بين القراءتين وجزمه به قد دفعه بنفسه ، ووفق بين معنى القراءتين حيث يقول فى صفحة ٣١ ما نصه :

وقرئ (غَلبت الروم) بالبناء للفاعل ، وهذا راجع إلى نصر أحرزه الروم توا على قبائل عربية تقع على الحدود السورية ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون بالبناء للمفعول ، فى بضع سنين ، والمسلمون الذين أجازوا هذه القراءة يرون فيها إخباراً بالنصر الذى

أحرزته الجماعة الإسلامية الفتية على البيزنطيين بعد هذا الوحى بتسع سنين . انتهى .

فادعاؤه بعد هذا أن بين القراءتين تناقضاً هو التناقض بعينه .

والذى أراه أن هذه القراءة ــ الثانية ــ لا تستأهل شيئاً من هذه العناية لما يأتى :

١ — أنها ليست من جملة قراءات الأئمة العشرة المقبولة قراءاتهم ، المتلقاة بالقبول عند علماء القراءة ، وليست من القراءات الشاذة المنسوبة إلى القراء الأربعة الذين فوق العشرة .

٢ — أن هذه القراءة لا تتلاقى مع سبب نزول الآية الكريمة ، ولا مع الوقائع التاريخية الصحيحة ، ولا مع الأحاديث والآثار المتكاثرة التى تتصل بهذه الآيات بأوثق الصلة ، وترتبط بها أتم ارتباط ، فهى قراءة جديرة بالرفض والإنكار ، حقيقة باطراحها ، وغض النظر عنها .

تحليل القراءات

ذكر جولد زيهر — تحت هذا العنوان — أن بعض هذه الاختلافات فى القراءة ترجع أسبابها إلى الخوف من أن ينسب إلى الله تعالى ما يتنزه عنه ، أو إلى الرسول ﷺ مالا يليق بمقامه الرفيع ، أو إلى شخصيات مالا يناسب قدرهم ، فيلجأ بعض القراء — حذرا من ذلك — إلى تغيير بعض الكلمات — من عنده — بما يتفق وجلال الله سبحانه ، ويتناسب مع مقام رسول الله ﷺ ، ويلائم قدر بعض الشخصيات .

ثم ساق لذلك أمثلة كثيرة نوردها فيما يلى :

١ — قوله تعالى فى سورة آل عمران آية ١٨ :

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾

قال جولد زيهر : أدرك بعضهم ما تثيره شهادة آلله لنفسه لا سيما مع قرن ذكره بالملائكة وأولى العلم على أنهم شاهدون معه ، فاستعانوا على علاج ذلك بالاستعاضة عن قراءة الفعل (شهد آلله) بصيغة الجمع (شهداء آلله) ، رابطين ذلك بالسياق بالآية السابقة :

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾

أى هؤلاء شهداء الله أنه لا إله إلا هو والملائكة . . الخ .

بيد أن من أحدثوا التعليل المذكور لم يجروا مثله فى النساء آية ١٦٦ :

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

فتركوها أى آية النساء دون تغيير لصعوبة التعديل . انتهى .

لعلك معى أيها القارئ الكريم أن هذا الكلام أحقر من أن يرد عليه ، أو يصغى إليه ، إذ لم يقرأ بهذه القراءة قارئ ما من يوم إنزال القرآن إلى وقتنا هذا .

وكل من رزق أثارة من علم ، أو أدنى قبس من نور الفهم لا يفهم أن شهادة الله تعالى لنفسه بالقيام بالعدل بين عباده تمس — من قريب أو بعيد — مقام الألوهية السامى ، والعجب العاجب أن جولد زيهر رد على نفسه بآية النساء ، وكان الأجدر به ، وقد وقف على آية

النساء ، وهى تدل على ما تدل عليه آية آل عمران ، ألا يتعرض لآية آل عمران ، وألا يذكر هذه القراءة المنكرة العميقة فى الشذوذ .

٢ — قوله تعالى فى سورة الصافات آيتا ١١ ، ١٢ وهما :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾

ذكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن المشركين من أهل مكة ينكرون البعث بعد الموت ، والنشور بعد البلى ، فيقول تعالى منددا بعدم إيمان هؤلاء وإنكارهم البعث ، وسخريتهم ممن يدعوهم إلى الإيمان به ، لافتا أنظارهم إلى آيات الكون الدالة على كمال قدرته على البعث والإحياء بعد الموت :

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أم مَّنْ خَلَقْنَا) .

أى من السموات والأرض والنجوم والكواكب والملائكة وما عددنا قبل ذلك :

(إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ، بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) .

قال جولد زيهر : اختلف القراء فى قراءة قوله تعالى :

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) .

فقرأه عامة أهل الكوفة (بل عَجِبْتُ) بضم التاء ، وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة .

وهى قراءة ابن مسعود ، وقرأ بعض قراء أهل الكوفة (بل عجبتَ) بفتح التاء ، وفسر المفسرون العجب من الله تعالى بتفسيرات مختلفة ، أما غيرهم فقد نسب العجب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويظهر أن العلماء رأوا أن فى إسناد العجب إلى الله تعالى مالا يليق فقرءوا بالفتح ، والمعنى بل عجبت أنت يا محمد وهم يسخرون من القرآن .

والذى يمكننا أن نفرضه هنا أن عجبت للمتكلم هو القراءة الأصلية ، ثم نقل عن الطبرى أنه قال : إنهما قراءتان مشهورتان فى قراء الأمصار ، فأيتهما قرأ القارئ فمصيب ، وإن التنزيل نزل بكلتيهما .

ثم قال : وكان شريح القاضى المتوفى سنة ٨٠ هجرية عن ١٢٠ سنة يقرأ بالفتح (عجبتَ) ، ويقول : إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم .

فقال إبراهيم النخعى : إن شريحا كان يعجبه علمه ، وعبد الله ابن مسعود أعلم منه ، وكان يقرأ بالضم . انتهى .

ونحن نلاحظ على هذه المقالة الملاحظات الآتية :

١ — قوله : إن عامة قراء المدينة والبصرة يقرءون بالضم ، وهذا منه محض اختلاق وكذب ، فإن عامة قراء المدينة كأبى جعفر وشيبة بن نصاح ونافع بن أبى نعيم وغيرهم ، وعامة قراء البصرة كأبى عمرو ويعقوب وغيرهما ، هؤلاء وهؤلاء لا يقرءون إلا بالفتح .

٢ — قوله : ويظهر أن العلماء قد رأوا أن فى إسناد العجب إلى الله تعالى مالا يليق فقرءوا بالفتح .

ونقول له : إن القراءات ليست بالرأى والتفكير والنظر والاجتهاد ، إنما هى بالنقل والرواية والاسناد ، وقد بينا ذلك فيما سبق أتم بيان .

والعلماء الذين نقل عنهم هذا لم يعجزوا عن تأويل العجب المسند إليـه تعالى تأويلا يتفق وجلال الألوهيـة كتأويله بالاستعظام ، أو بالجزاء ، أو نحو ذلك .

بعيد بل مستحيل على هؤلاء العلماء أن يتركوا القراءة بالضم

— وهى ثابتة بطريق التواتر — رغبة عنها ، وزهدا فيها بحجة أن فيها إيهام مالا يليق به سبحانه ، ثم نقول له : لو كان وجود العبارات الموهمة سببا فى تغيير القراءة لغيرت آيات كثيرة فى القرآن هى أشد إيهاما من الآية التى معنا ، هذه الآيات التى تدل بظاهرها على مشابهة الله لعباده ، وعلى اتصافه بأوصاف المحدثين كهذه الآيات :

(يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[1] .

(تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)[2] . .

(وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ)[3] . .

(فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ)[4] . .

(وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا)[5] . .

(إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ)[6] . .

---

(١) آية ١٠ من سورة الفتح .

(٢) آية ١٤ من سورة القمر .

(٣) آية ٢٧ من سورة الرحمن .

(٤) آية ٥٥ من سورة الزخرف .

(٥) آية ٥٠ من سورة النمل .

(٦) آية ٢٢٢ من سورة البقرة .

وقد تولى العلماء تأويل هذه الآيات وأشباهها بما يتفق وتنزيه الله عن الحوادث ، وسمات المخلوقين .

٣ — قوله . والذى يمكننا أن نفرضه هنا ان عجبت للمتكلم هو القراءة الأصلية . .

ونقول له : من أين أتاك أن القراءة بالضم هى القراءة الأصلية ؟ إن كلتا القراءتين متواترة ثابتة بطريق القطع واليقين ، فهما متساويتان ، فدعوى أن إحداهما أصلية والأخرى فرعية دعوى باطلة لأن فيها ترجيح إحدى المتساويتين بلا مرجح وهو باطل . . ولم لا تكون القراءة بالفتح هى الأصلية باعتبار خلوها من الايهام المذكور ؟ . .

ليس فى القراءات أصلى وفرعى ، بل جميع القراءات المعتمدة متساوية من حيث نقلها وسندها وروايتها ، لا تمتاز قراءة عن أخرى من هذه الحيثية ، وليس أدل على تساوى هاتين القراءتين فى هذه الآية ، وعدم أصالة إحداها ، وفرعية الأخرى مما قاله الإمام ابن جرير ، ونقله عنه جولدزيهر ، وقد مر بك آنفا .

وأما أن شريحا كان يقرأ بالفتح ويقول : إن الله لا يعجب من شىء ، إنما يعجب من لا يعلم ، فقصاراه أنه آثر إحدى القراءتين

المتواترين ، وهى قراءة الفتح — على الأخرى وهى قراءة الضم ، لأن قراءة الفتح لا توهم شيئا فلا تحتاج لتأويل ، بخلاف قراءة الضم فإنها موهمة ، فتحتاج للتأويل ، ومالا يحتاج لتأويل أولى مما يحتاج له ، وليس معنى اختياره لقراءة الفتح أنه ينكر قراءة الضم — حاشاه من ذلك .

٣ — قوله تعالى فى سورة العنكبوت آيتا ٢ ، ٣ :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

قال جولدزيهر : تشتمل هذه الكلمات على افتراض أن الله تعالى سيعلم ذلك بعد الامتحان ، كأنما لم يعلمه دون ذلك ، وكأنما ليس هو الذى قدره وقضاه .

ويبدو أن قراءة منسوبة إلى على والزهرى قصد بها إلى رفع هذه الشبهة وهذه القراءة (فَلَيُعْلِمَنَّ) بضم الياء وكسر اللام بمعنى : فَلَيُعَرِّفَنَّ الله الناس بهم .. أو بمعنى فَلَيَسِمَنَّهُم الله بعلامة يعرفون بها ، فعلامة الصادقين سواد العيون ، أو كحلها ، وعلامة الكاذبين

زرقة العيون ، وتعد زرقة العيون عند العرب علامة على خبث الطوية ، وتعد قبيحة يتشاءم بها وينسب إليها أحيانا قوة سحرية ضارية . انتهى

وأقول : نقل جولدزيهر هذه المقالة كلها أو جلها من تفسير أبي حيان والقرطبي والألوسى ، والذى نلاحظه على هذه القراءة المنسوبة لعلى بن أبي طالب وغيره أنها لم ترو عن أحد من القراء العشرة ، ولا عن أحد من ذوى القراءات الشاذة ، ولا عن أحد ممن تنسب إليه القراءات ولو على قلة أو ندرة ، فنحن نشك فى صحة نسبتها لعلى ومن ذكر معه .

وعلى فرض ثبوت نسبتها لعلى ومن ذكر معه فليس هناك ما يدل على أن عليا غيرها من تلقاء نفسه لاشتمالها على ما يصادم أصلا من أصول العقيدة ، إذ لو كان كذلك لغير الآيات الدالة على ما تدل عليه هذه الآيات نحو قوله تعالى فى سورة آل عمران .

(وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟) . . آيتا ١٦٦ ، ١٦٧ .

ونحو قوله تعالى فى سورة الحديد :

(وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ) . . آية ٢٥

بل فى القرآن آيات تدل على أشد مما تدل عليه هذه الآيات ، ولم يجرؤ علىّ ولا غيره أن يغير شيئاً فيها نحو قوله تعالى فى سورة آل عمران :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ) . . آية ١٤٢

وقوله تعالى فى سورة التوبة :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) .. آية ١٦ .

والذى ندين الله تعالى عليه أن أحدا من المسلمين كائنا من كان — لا يدور بخلده ، ولا تحدثه نفسه بتغيير شىء فى القرآن مهما ترتب على هذا التغيير من إصلاح ، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم — وهو هو — أُمِرَ من قبل الله عز وجل بأن يقول :

(مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓ)[1] ..

فكيف يجرؤ علىّ أو غيره أن يغير شيئاً فى القرآن من تلقاء نفسه ؟

---

(١) آية ١٥ من سورة يونس .

طافت هذه الشبهة برأس كثير من الناس منذ العصور الأولى للإسلام ، ولقد قام جهابذة العلماء من القدامى والمحدثين وأئمة التفسير — خصوصاً علماء الكلام — بتفنيد هذه الشبهة والإجابة عنها ، وبيان معنى الآيات بما لا يمس جوهر العقيدة ولا يصادم أصلا من أصول الدين .

ومما قرره العلماء فى هذا المقام أن علم الله تعالى يتعلق بالشىء قبل وقوعه على أنه لم يقع ، وبعد وقوعه على أنه وقع ، وأولوا مثل هذه الآية هذا التأويل : فليعلمن الله صدق الصادقين ، وكذب الكاذبين ، بعد حصولهما على أنهما حاصلان كما علمهما قبل وقوعهما غير حاصلين ، وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا — أى وليعلم إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين واقعين كما علمهما قبل وقوعهما غير واقعين ، وقوله تعالى :

(وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ) .

لما فيه نافية بمعنى لم — أى ولم يعلم الله جهاد المجاهدين ، وصبر الصابرين حاصلين ، كما علمهما غير حاصلين ، فصفة العلم فى حق الله تعالى قديمة لم تسبق بجهل — تعالى الله عن ذلك — ولا تتغير ،

إنما الذى يتغير تعلقها بالشيء ، فتعلقها بالشيء غير حاصل غير تعلقها به حاصلا . والله تعالى أعلم .

٤ — قوله تعالى فى سورة المائدة آية ١١٢ :

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يقول جولدزيهر فى صفحة ٣٦ : يسأل الحواريون بعد أن آمنوا بالله وبعيسى . يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ ومثل هذا السؤال لا يمكن أن يكون صدر على لسان الحواريين ، لهذا قرأ بعضهم (هل تستطيع ربَّك) بتاء الخطاب مع نصب باء ربك بمعنى هل تستطيع سؤال ربك — أى أن تجعله يفعل ذلك بناء على سؤالك إياه . انتهى .

وأقول : قوله ومثل هذا السؤال يعني هل يستطيع ربك بياء الغيب ورفع باء ربك لا يمكن أن يكون صدر على لسان الحواريين معناه إنكار هذه القراءة وإلغاؤها مع أنها قراءة جميع قراء المدينة ومكة والشام والبصرة ، وجمهور قراء الكوفة .

وقد ثبتت بطريق التواتر الذى يفيد القطع واليقين ، فلا مجال لجحدها أو التردد فى ثبوتها ، وهذه القراءة — وإن توهم منافاتها لقوله تعالى عن الحواريين فى نفس السورة :

(قَالُوٓاْ ءامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) . . آية ١١١

إذ لا يتصور مع الإيمان الشك فى قدرة الله تعالى لأن من آمن بالله تعالى وعرف أنه قادر على كل شىء ، وصدق برسوله الصادق الأمين كيف يصدر منه ما يدل على شكه فى قدرة ربه ؟

أقول : إن هذه القراءة — وإن كانت فى ظاهرها تنافى إيمان الحواريين — لها من التأويلات الجيدة ، والتوجيهات القوية التى تقرها اللغة ، ويؤازرها السياق ما يلائم إيمان الحواريين أتم ملاءمة .

وهاك أهم هذه التأويلات :

(أ) إن السين والتاء زائدتان ، وكثيراً ما تزاد السين والتاء فى ألفاظ العرب وأساليبهم ، فى نثرهم ونظمهم . . من ذلك قولهم استجاب بمعنى أجاب ، واستطاع بمعنى أطاع ، وعلى هذا يكون المعنى هل يطيعك ربك فى إنزال مائدة من السماء إذا طلبناها ؟

قال الإمام ابن جرير : إن يطيع بمعنى يجيب مجازا ، والمعنى :

هل يستجيب إن سألته ذلك ويطيعك فيه انتهى وهذا قول السدى.

(ب) إن المراد من هل يستطيع هل يفعل ذلك ويحققه ؟ وهذا كقولك لرجل هل يستطيع فلان أن يأتى وأنت تعلم أنه يستطيع الإتيان ويقدر عليه ، فالمعنى هل يفعل هذا الفعل ، ويجيبنى إليه ، وفى هذا التعبير مجاز مرسل حيث أطلق السبب وهو الاستطاعة وأراد المسبب وهو الإتيان ..

والمجاز بجميع أقسامه أسلوب من أساليب العرب فى نثرهم ونظمهم ، وجميع مقاصدهم فى الكلام ، وهو أبلغ من الحقيقة ، لأنه بمثابة دعوى الشىء ببينة ، كما قرر ذلك العلماء ، فكأنك تقول : هل يأتى فلان ؟ ينبغى له أن يأتى لأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه . .

وهذا التعبير فى الآية كقولك أيضاً لشخص هل تستطيع أن تقوم معى وأنت تعلم استطاعته القيام وقدرته عليه ، كما قال بعض التابعين لبعض الصحابة هل تستطيع أن ترينى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ، وهو يعلم أنه يستطيع ذلك ، فالمعنى هل تفعل ذلك وتحقق رغبتى ؟ فيكون حاصل معنى الآية : هل ينزل الله مائدة من السماء بسؤالك إياه ؟ فإن كان كذلك فاسأله لنا أن ينزلها .

(ج) إن المعنى : هل إنزال مائدة من السماء يلائم الحكمة الإلهية حتى يكون فى نطاق القدرة الإلهية فيصح طلبه ، أو أنه ينافى الحكمة الإلهية ، فلا تتعلق به القدرة فيمتنع طلبه لأن ما ينافى الحكمة لا تتعلق به القدرة — وإن كان ممكناً فى ذاته — فلا يصح طلبه .

وقريب من هذا ما قيل إن المعنى هل إنزال مائدة من السماء قضى الله به أزلا ، وعلم وقوعه حتى تتعلق به القدرة فيجوز طلبه ، أو أنه لم يقض به أزلا ولم يعلم وقوعه فيكون محالا فلا تتعلق به القدرة فلا يسوغ طلبه ؟ .

(د) قال أبو حيان فى البحر: ليس المقصود من الكلام كونهم شاكين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك فى غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول : هل يقدر السلطان على إشباع هذا ، ويكون غرضه منه أن ذلك أمر واضح لا يجوز للعاقل أن يشك فيه . انتهى.

وعلى هذا يكون الاستفهام فيه للتقرير .

(هـ) قال العلامة القرطبي : إن القوم لم يشكوا فى قدرة الله تعالى لأنهم كانوا مؤمنين عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك كما قال إبراهيم :

(رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ)[1] ..

وقد كان إبراهيم يعلم ذلك علم خبر ونظر ، ولكن أراد المعاينة التى لا يدخلها ريب ولا شبهة، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات وعلم المعاينة لا يدخله شئ من ذلك ، ولذلك قال الحواريون :

(وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا)[2] ..

كما قال إبراهيم .

(وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[3] .. انتهى .

فيكون سؤالهم حينئذ للاطمئنان والتثبت ، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى :

(إن كنتم مؤمنين) إن كنتم كاملين فى الإيمان والإخلاص.

ومعنى (ونعلم أن قد صدقتنا) ونعلم علم مشاهدة وعيان بعد أن علمناه علم إيمان، وإيقان ، ومع هذه التأويلات التى تلائم روح الآية ونحواها ، وتوائم سرها ومرماها ، ويساعدها سياق الآيات وسباقها ،

---

(١) آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) آية ١١٣ من سورة المائدة .

(٣) آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

وتؤازرها الأساليب العربية ، والتعبيرات البلاغية ، لا يصح رفض هذه القراءة ، والتنكر لها ، واطراحها ، بل يجب قبولها والاطمئنان لها ، والدفاع عنها ، وفوق ذلك هى قراءة ثبتت بالطريق التى تفيد القطع واليقين بثبوتها ، وهى طريق التواتر ، فلا مجال للإعراض عنها ، أو التردد فى ثبوتها .

٥ — قوله تعالى فى سورة الأنبياء آية ١١٢ :

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

قال جولد زيهر فى صفحة ٣٧ فى الكلام على هذه الآية : لم يرتض أحد من ثقات القراء أن يطلب محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى أن يحكم بالحق ، كأنما فى الإمكان أن يحكم بغير ذلك ، فأراد رفع هذه الشبهة بتحويل الصيغة بوساطة تغيير حركاتها مع الاحتفاظ بمحصولها الصوتى من صيغة الدعاء إلى صيغة التفضيل ، وبهذا ينتقل الكلام من الإنشاء إلى الإخبار هكذا (رَبِّى أَحْكَمُ بالحقِّ) أى ربى أعظم حكما بالحق من كل حاكم ولن يحيك من ذلك شىء فى النفس . . انتهى .

وأقول : قد تضمنت هذه المقالة ما يأتى :

(أ) ادعاء جولد زيهر أن راوى هذه القراءة من ثقات القراء ..
وهو ادعاء باطل ، وزعم كاذب ، فإن راوى هذه القراءة الضحاك
ابن مزاحم المتوفى سنة ١٠٥ هجرية ، وليس الضحاك من القراء ،
فضلا عن أن يكون من ثقاتهم ، وليست له قراءة معتمدة ، ذات
قواعد ثابتة ، وأصول مقررة .

(ب) إن الضحاك هو الذى حول القراءة من صيغة الدعاء
إلى صيغة التفضيل من تلقاء نفسه ، وقد سبق أن قلنا غير مرة :
إن ركيزة كل قراءة النقل الثابت ، ودعامتها الرواية المسندة ،
وأساسها التلقى الصحيح ، وقد أقمنا على ذلك من البراهين ما فيه
الكفاية والغناء .

(ج) فهم جولد زيهر أن المراد بالحق فى الآية الكريمة هو العدل
بمعناه المطابق وهو وضع الشىء فى موضعه ، والبعد عن الجور والظلم ،
فرتب على فهمه الخاطىء ما رتب .

ونقول له : إن المراد بالحق فى هذه الآية تعجيل العقوبة
للكافرين المشركين ، وإحلال العذاب عليهم ، والنقمة بهم فى الدنيا
وعدم إمهالهم بتأخير العذاب عنهم إلى يوم الدين .. ذلك هو الحق

الذى أمر الله تعالى نبيه أن يسأل ربه الحكم به على الكافرين ، وهذا كقوله ﷺ : (اللهم اشدد وطأتك على مضر) . .

ولذلك قال ابن عباس فى الآية :

(قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ) . .

لا يحكم بالحق إلا الله ، ولكن إنما استعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه على قومه ، وقد استجاب الله دعاءه صلى الله عليه وسلم على قومه فعجل لهم العقوبة يوم بدر .

ثم نقول له : إن هذه الآية مثل قوله تعالى فى سورة الأعراف آية ٨٩ :

(رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ) . .

سواء بسواء فمعنى الحق فى الآيتين واحد ، ولم يختلف القراء فى قراءة هذه الآية على الوضع الذى هى عليه .

والحق أن هذه القراءة قراءة منكرة لم ترد عن أحد من القراء العشرة المتواترة قراءاتهم ، ولا عن أحد من القراء الأربعة الذين فوق العشرة المروية قراءاتهم بطريق الآحاد فحكم عليها بالشذوذ . .

فهذه القراءة المنسوبة للضحاك متوغلة فى الشذوذ ، عميقة فى الغرابة والنكارة ، فيجب رفضها واطراحها وعدم الالتفات إليها .

ثم هذه القراءة — بعد هذا وذاك — مخالفة لخط المصاحف العثمانية ، لأن فيها زيادة ياء فى كلمة (رب) وقد أجمع العلماء على أن القراءة التى تخالف المصاحف العثمانية بزيادة أو نقص ، لا ينظر إليها ولا يعول عليها ، خصوصاً ، وأن معنى القراءة بغير هذه الزيادة صحيح لا غبار عليه .

٦ — قوله تعالى فى سورة البقرة : آية ١٠٦ :

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾

خلاصة ما ذكره جولد زيهر فى هذه الآية فى صفحة ٣٨ أنه نقل عن بعض العلماء أنه استبعد قراءة أو ننسها ، بضم النون الأولى ، وسكون الثانية مع كسر السين من النسيان ، مع أنها قراءة متواترة لا مغمز فيها ، ولا مطعن فى طريقها .

ثم ذكر فى الآية ثلاث قراءات أخرى :

القراءة الأولى : (تَنْساها) بالتاء المثناة الفوقية المفتوحة وبعدها نون ساكنة فسين مفتوحة فألف بعدها ، والقراءة ليست هكذا ،

إنما هى (تَنْسَها) بحذف الألف بعد السين للجازم لأنها معطوفة على ننسخ المجزوم ، وعلى كل هى قراءة بمكان من الشذوذ لم ترو عن أحد معين ثقة من القراء لا من العشرة ، ولا ممن بعدهم من ذوى القراءات الشاذة فلا يلتفت إليها .

القراءة الثانية : (نَنْسَأها) بنون مفتوحة فنون ساكنة فسين مفتوحة فهمزة ساكنة من الأنساء ، وهو التأخير والإرجاء ، وهى قراءة متواترة كقراءة (أو ننسها) من النسيان .

القراءة الثالثة : وهى منسوبة إلى سعيد بن المسيب (ننساها) كالقراءة التى قبلها لفظاً ومعنى فهى من الأنساء بمعنى التأخير والإرجاء غير أن همزتها أبدلت ألفا تخفيفا .

فقول جولد زيهر : بإسناد النسيان إلى الله تعالى خطأ فاحش إذ لو كانت من النسيان لكانت هكذا (نَنْسَها) بحذف الألف عطفاً للفعل المجزوم على الفعل المجزوم قبله ، وليس هناك قراءة بهذا الضبط (نَنْسَاهَا) لافى المتواترة ، ولا فى الصحيحة ، ولا فى الشاذة ولا فيما وراء ذلك .

وأما رفض سعد بن أبى وقاص لهذه القراءة ، وقوله : إن القرآن

لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب ، فليس ذلك لفساد معناها ، بل لعدم ثبوتها .

٧ — الآية ١٠٦ من سورة المائدة وهى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾

قال فى صفحة ٣٩ : يدور الحديث حول الوصية شفاها ، فإذا حصل أدنى شك فى صدق الشاهدين فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين .

وكأنما بدا لعامر الشعبى المتوفى سنة ١٠٣ هجرية أن إيقاع الكتمان على مفعوله الذى هو (شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ) غير لائق ، إذ كان ذلك ربما أفاد أن من الممكن كتمان شىء شهيده الله تعالى نفسه ،

فتخلص من ذلك هو أو الثقات الذين ربما اعتمد عليهم فقرأ بتنوين لفظ شهادة على حذف الإضافة ، ومد همزة (الله) على ابتداء جملة جديدة :

(وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةً آللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ) . .

أى والله — فالاستفهام عوض عن واو القسم . . انتهى .

وأقول : فهم جولد زيهر أن الإمام الشعبي عدل عن القراءة المتواترة بناء على أن إيقاع الكتمان على مفعوله الذى هو شهادة الله غير لائق ، لأنه ربما أفاد أن من الممكن كتمان شىء شهيده الله نفسه ، ولم يرد عن الشعبي مثل هذا المعنى ، ولا يدور بخلد الشعبي هذا الفهم الذى فهمه جولد زيهر ، بل الذى يفهمه الشعبي ويفهمه كل من عنده أدنى مسكة من تذوق الأساليب العربية ، والتراكيب القرآنية أن المراد ولا نكتم الشهادة التى أوجب الله علينا إظهارها ، وحظر علينا كتمانها ، وأضاف سبحانه الشهادة لنفسه لأنه هو الآمر بها ، والمشرع لها .

وقراءة الإمام الشعبي من جملة القراءات المبعدة فى الشذوذ العريقة فى الغرابة ، ولذلك لم يعبأ بها القراء ، ولم يتلقها بالقبول أحد من أهل الأداء .

٨ — قوله تعالى فى سورة البقرة آية ١٣٧ :

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾

قال فى صفحة ٣٩ : ويتبين مدى مادعا إليه الخوف والتقوى من مثل هذه التصويبات التنزيهية فيما جرى على هذه الآية حيث قيل عن اليهود :

(فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ) ..

فقد غلبت على نفوس الأتقياء المتخوفين شبهة لا أساس لها أصلا ، عند الإمعان اللغوى ، هى أن منطوق اللفظ يضع على ذلك إلى جانب الله تعالى سبحانه مِثْلاً يدعى اليهود أنهم يؤمنون به ، وهم يبعدون الشبهة التى تخامرهم بتغيير مستأصل ، فيحذفون من النص لفظ « مثل » الذى أثار هذه الشبهة ويقرءون :

(فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ) .. انتهى

وأقول : ليس فى الآية — مع وجود لفظ مثل — شبهة ولا شبه شبهة، وليس فيها مايشعر بأن لله تعالى نداً و نظيراً ، لأن معنى الآية : فإن آمن اليهود بالله تعالى وبنبيكم ، وبعامة الأنبياء قبله ، و بسائر ما أنزل

الله على رسله من الكتب إيماناً مثل إيمانكم ، وصدّقوا مثل تصديقكم ، ولم يفرقوا بين رسول ورسول كما لم تفرقوا فقد اهتدوا كما اهتديتم ، فالمماثلة فى الآية إنما وقعت بين الإيمانين ، إيمان اليهود ، وإيمان المؤمنين ، ولم تقع المماثلة بين المؤمَن به ، وهو الند والنظير بالنسبة لليهود ، والبارى بالنسبة للمؤمنين .

ويقرب من هذا ماقاله العلامة النيسابورى . . إن قوله تعالى : (فانْ ءامَنُواْ) بكلمة الشك دليل على أن الأمر مبنى على الفرض والتقدير — أى فان حَصَّلوا ديناً آخر مثل دينكم ، ومساوياً له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا ، لكن لادين صحيحاً سوى هذا لسلامته عن التناقض بخلاف غيره ، فلا اهتداء إلا بهذا ، ونظيره قولك لرجل بالنسبة لرأى تصوّبه :

هذا هو الرأى الصواب ، فإن كان عندك رأى أصوب منه فاعمل به ، وقد علمت أنّ لاأصوب من رأيك ، ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أن مارأيت لا رأى وراءه . انتهى .

وقد أجمع القراء على ترك هذه القراءة لمخالفتها جميع المصاحف العثمانية بسبب نقص هذا اللفظ (مثل) منها ، فلا عبرة بها ، ولا نظر إليها .

٩ — قوله تعالى فى سورة آل عمران آية ١٦١ :

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾

ذكر جولد زيهر فى صفحة ٤٠ أن فى هذه الآية قراءتين :

الأولى : (يغُلّ) بفتح الياء وضم الغين مبنياً للفاعل .

الثانية : (يُغَلّ) بضم الياء وفتح الغين مبنياً للمفعول .

والقراءتان متواترتان ، قرأ بكل منهما كثير من الصحابة والتابعين ، ومن مشاهير القراء المعتبرين .

ومعنى القراءة الأولى : ماصح وما استقام وما أمكن لنبي — بمقتضى منصبه الرفيع ومكانته السامية — أن يخون فى الغنائم أو غيرها ، فهذا حكم عام ينفى عن جميع الأنبياء إمكان أن يخونوا ويحتجزوا شيئاً من أموال الغنائم أو سواها .

والمقصود فى الآية الرد على من اتهمه — ﷺ — وحاشاه من ضعفاء الإيمان ، ومن المنافقين بالخيانة فى الغنائم ، فكأن الله تعالى يقول : لايجتمع منصب النبوة السامى ، ووصمة الخيانة الدنيئة فى شخص واحد ، بل يتنافيان ، لأن أى نبي معصوم من دنايا الأخلاق ، ووضيع الصفات ، فلا يحل أن يتوهم فى النبي ذاك ، فالآية

تقريع لمن اتهم رسول الله ﷺ بما يترفع عنه ، وينأى به قلبه الكبير عن فعله .

ومعنى القراءة الثانية : وما صح لنبي أن يُغَلَّ — أى ينسب إلى الغلول والخيانة ، وقال بعض المحققين : معنى هذه القراءة ماصح لنبي أن يوجد غالا ، ولا يوجد غالا إلا إذا كان غالا ، وهذا مأخوذ من قولهم أغللته إذا وجدته غالا كما يقال : أحمدت فلاناً وجدته محموداً ، وأبخلته وجدته بخيلا ، فالهمزة للدلالة على وجدان الشيء على صفة وعلى هذا المعنى تتحد القراءتان ، ويعضد كل منهما الأخرى ، وليس فى القراءة الأولى ولا فى الثانية مايمس مرتبة النبوة وينال منها .

١٠ — قوله تعالى فى سورة يوسف آية ١١٠ :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

فى هذه الآية ثلاث قراءات :

الأولى : (كُذِّبُواْ) بضم الكاف وتشديد الذال مكسورة .

الثانية : (كُذِبُواْ) بضم الكاف وتخفيف الذال مكسورة .

الثالثة : (كَذَبُواْ) بفتح الكاف والذال مخففة .

والقراءتان الأوليان متواترتان والثالثة شاذة . .

وقد تكفل العلماء قديماً وحديثاً بتوجيه القراءات الثلاث ، فوجّهوا الأولى بأن الضمير فى وظنوا يعود على الرسل ، والظن بمعنى العلم واليقين ، والضمير فى أنهم يعود على الرسل أيضاً ، وكذلك الضمير فى كذبوا يعود عليهم .

والمعنى : أيقن الرسل أن أممهم كذّبوهم فى دعوى الرسالة وفى كل ما جاءوا به عن الله تعالى تكذيباً لا يرجى معه الإيمان أصلا لأن هؤلاء القوم لا خير فيهم ، وليس عندهم استعداد ما للإيمان ، فحينئذ دعا الرسل على القوم ، فنصر الله الرسل ومن آمن بهم ، وأنزل عذاب الاستئصال بالمكذبين .

أو المعنى : تيقن الرسل أن أممهم كذّبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ونصرة المؤمنين عليهم ، لطول البلاء بالمؤمنين ، ويصح على هذه القراءة أن يكون الظن على حقيقته .

والمعنى : وظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذّبوهم ، وهذا

تأويل عائشة أم المؤمنين للآية ، قالت إن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم .

قال الإمام القرطبي : قالت عائشة هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم كذّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك . انتهى

وأما القراءة الثانية فوجهت بوجهين :

الأول : أن الضمير فى وظنوا يعود على القوم المكذبين للرسل المدلول عليهم بذكر الرسل ، لأن الرسل تستدعى مرسلا إليهم ، أو لتقدمهم فى الذكر فى قوله تعالى فى نفس السورة :

(فينظُروا كَيفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) آية ١٠٩.

قال الألوسى : فيكون الضمير للذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل ، والضمير فى أنهم يعود على الرسل وكذلك الضمير فى كذبوا يعود عليهم .

والمعنى : وظن القوم المرسل إليهم أن الرسل قد كُذِبوا فيما وعدوا به من النصر على أعدائهم .

قال فى البحر : وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كَذَبَهُمْ من ادعى أنه جاءهم بالوحى عن الله تعالى بنصرهم ، وبعقاب أعدائهم إن لم يؤمنوا . انتهى .

الثانى : أن الضمير فى وظنوا وفى أنهم وفى كذبوا . . الضمائر الثلاثة تعود على القوم المكذبين .

والمعنى : وظن القوم المكذبون المرسل إليهم أنهم قد كذبوا من جهة الرسل بمعنى أن الرسل قد كذبوا عليهم فى ادعائهم النبوة وفى النصر عليهم ، وفى نزول العقاب بمن لم يؤمن بهم ، فلم يصدقوا فى شىء مما ذكر ، وعلى هذين الوجهين يراد بالظن حقيقته .

وأما القراءة الثالثة : فقد وجهها فى البحر بقوله : أى وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما قالوا عن الله تعالى من العذاب ، والظن على بابه . انتهى .

وقال القرطبى فى تأويل هذه القراءة : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذَبُوا لما رأوا من تفضل الله عليهم بتأخير العذاب عنهم ، ويجوز أن يكون المعنى : وأيقن الرسل أن قومهم قد كذَبوا على الله بكفرهم . انتهى .

وقال الألوسى فى تأويل القراءة : ضمير ظنوا للأمم ، وضميرا أنهم قد كذبوا للرسل ، أى ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوهم به من النصر أو العقاب ، وجوز أن يكون ضمير وظنوا للرسل ، وضميرا أنهم قد كذبوا للمرسل إليهم ، أى ظن الرسل أن الأمم كذبتهم فيما وعدوهم به من أنهم يؤمنون ، والظن على كلا الاحتمالين بمعنى اليقين انتهى ، وفى المحتسب لابن جنى وظنوا أنهم قد كَذَبوا فيما أتوا به من الوحى إليهم . انتهى .

قال الإمام ابن جرير : وهذه القراءة (كَذَبُوا) لا أستجيز القراءة بها ، لإجماع الحجة من قراء الأمصار على خلافها ، ولو جازت القراءة لاحتملت وجها من التأويل وهو : حتى إذا استيأس الرسل من عذاب الله قومها المكذبة بها ، وظنت الرسل أن قومها قد كذبوا وافتروا على الله بكفرهم بها ، ويكون الظن موجها حينئذ إلى معنى العلم على ما تأوله الحسن وقتادة . انتهى .

وهذه القراءة (كذبوا) — وإن كان لها معنى صحيح وتأويل حسن لا يناقض معنى القراءتين الأوليين المتواترتين — شاذة عريقة فى الشذوذ ، وحسبنا دليلا على ذلك أنه لم يقرأ بها أحد من القراء

العشرة المشهورين، ولا أحد من القراء الأربعة المحكوم على قراءتهم بالشذوذ .

وقد قررنا غير مرة أن القراءة إذا لم تثبت بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد بشرط الشهرة والاستفاضة ، والتلقى بالقبول ، لا يعتد بها ، ولا تعتبر قرآنا ، وهذه القراءة لم تثبت بطريق التواتر ، ولا بطريق الآحاد مطلقا فلا يعبأ بها ، ولا يعول عليها :

ولنرجع إلى مناقشة الكاتب : « جولد زيهر » فنقول :

يقول فى صفحة ٤١ : لا شك أن هذه القراءة (كَذَبُوا) بفتح الكاف والذال خفيفة هى القراءة الأصلية .

وأقول : ليس فى القراءات قراءة أصلية ، وأخرى فرعية عنها ، ولم يذهب إلى هذا التقسيم أحد من علماء القراءات مطلقا ، لا من السلف ولا من الخلف ، وليس للكاتب سند فى هذا التقسيم ، لا من النقل ولا من العقل ، وإنما الذى اتفقت عليه كلمتهم ، أن القراءة إن ثبتت بطريق التواتر قبلت وقطع بكونها قرآنا ، وإن ثبتت بطريق الآحاد ولكن ذاع أمرها وشاع بين القراء خبرها ، وتلقوها بالقبول ، قبلت وعدت من القرآن أيضاً ، وإن نقلت بطريق الآحاد

ولم تظفر بالاستفاضة والذيوع والتلقى بالقبول رفضت وحكم عليها بالشذوذ ، ولا تعتبر من القرآن أصلا كقراءة الأربعة الذين فوق العشرة ، أما إذا لم يكن لها سند صحيح ولا رواية ثابتة كهذه القراءة (كَذَبوا) ، فإنه يحكم عليها بالشذوذ الشاذ ، والنكارة النكراء ، والرفض التام ، ولا يقام لها فى موازين القراءات وزن أو اعتبار .

إذا عرفت هذا فدعوى جولد زيهر أن القراءات قسمان أصلية وفرعية دعوى لا تستند إلى دليل ، ولا إلى شبه دليل ، ولم يوافقه عليها أحد من علماء القراءة .

ثم إنه أول الآية تأويلا أملاه عليه قصده الخبيث ، واتجاهه المريض ، ونزغته الإلحادية الجائرة حيث يقول : بيد أن الأنبياء قد ظنوا أنهم كذبوا أى صدر عنهم الكذب ، وهذا أمر لا يستطيع مؤمن صادق الإيمان أن يتحمله ويتقبله .

وقد مر بك أن للقراءة تأويلا يساعده سياق الآية ، ولا يخدش مقام الأنبياء بالكذب والافتراء ، ولو أنه كان حسن النية ، سوى القصد لأول هذه القراءة بما أول هو به القراءة المتواترة ، حيث جعل ضمير وظنوا راجعا للقوم ، ويكون المعنى على هذه القراءة

(كَذَبواْ)وظن القوم أن الأنبياء كذبوا ، ولكنها القلوب المريضة أعمتها الأهواء .

ومما يدل على سوء قصده ، وعدم نضجه فى التفكير والبحث أنه ساق قصة أم المؤمنين عائشة الصديقية دليلا على أنها تناولت هذه القراءة (كَذَبواْ) وما تدل عليه من أن الأنبياء ظنوا أنهم كَذَبوا وحاولت إيجاد حل لهذا الإشكال مع أن الذى ثبت فى كتب السنة عن عائشة أنها تناولت قراءة(كُذِبُواْ) واستبعدتها، ورجحت عليها قراءة (كُذِّبُواْ) .

وأيضاً ساق قصة مسلم بن يسار ، وسؤاله سعيد بن جبير عن قراءة (كَذَبواْ) .

والواقع أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن تأويل لقراءة (كُذِبُواْ) كما هو صريح كتب السنة ، فقد روت أن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير : يا أبا عبد الله آية بلغت منى كل مبلغ :

(حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ) .

فهذا الموت أن تظن الرسل أنهم قد كُذِبوا فقال له سعيد : يا أبا عبدالرحمن حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبتْهُم جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، فقام مسلم إلى سعيد واعتنقه وقال له : فرّج الله عنك كما فرجت عني .

١١ — قوله تعالى فى سورة يوسف آية ١٢ :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

اختلف القراء العشرة فى كلمتى (يرتع ويلعب) فقرأ بعضهم بالياء فى الكلمتين ، وقرأ بعضهم بالنون فيهما ، والكلمة التى أعارها جولد زيهر اهتماماً من الكلمتين كلمة (ويلعب) فذ َكر أن قراءتها بالياء أكثر ألفة لدى القراء ، ثم استدل على ذلك بأن القراءة الأساسية فى نص الزمخشرى والبيضاوى هى قراءة (ونلعب) بالنون ، ثم حكم على هذه القراءة بأنهـا القراءة الأصلية واستدل فى حكمه إلى الآية ١٧ من نفس السورة وهى :

(قَالُوا يَٰأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) .

حيث لم تقرأ كلمة نستبق إلا بالنون بإجماع القراء ، ثم استدل على ذلك بقوله : بيد أن هناك سبباً وجيهاً فى اطّراح هذه القراءة ؛

على ذلك بقوله : بيد أن هناك سبباً وجيهاً فى اطّراح هذه القراءة ، فإن الطبرى الذى ذكر فى تفسيره أن قراءة ونلعب بالنون هى قراءة بعض البصريين خلافا للكوفيين ، وأنها أيضاً قراءة أبى عمرو ، احتفظ لنا فى نفس الوقت بهذا الخبر المدرسى . قيل لأبى عمرو : وكيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ قيل : لم يكونوا يومئذ أنبياء .

فاطّراح القراءة البصرية التى جعلها ثقات ذوو مكانة فى علوم القرآن كالزمخشرى وغيره أساساً لتفسيرهم صدر إذاً عن باعث التعظيم لأولاد الأنبياء الذين قدر لهم أن يصيروا أنبياء ، واللعب الذى تظاهروا بأنهم يريدون مزاولته لا يتفق مع ما قدر لهم من رفيع المقام ولا يمكن أن يظن بالقرآن نسبة هذا الميل إليهم ، ولم يُلقِ مَن قال بهذا التصويب بالا لما جاء بالآية (١٧) . انتهى .

وخلاصة كلامه : أن قراءة ونلعب بالنون هى القراءة الأساسية

عند الزمخشرى والبيضاوى لأن كلا منهما بدأ بها في تفسير الآية ، وبعد أن فسرها على هذه القراءة قال وقرىء (يرتع ويلعب) بالياء فيهما ، فدل ذلك على أن القراءة الأساسية عندهما بالنون ، وهى — القراءة بالنون — القراءة الأصلية في نظره لأنها متناسبة متناسقة مع الآية (١٧) (نستبق) التى لم تقرأ إلا بالنون ، ولكن على الرغم

من أن قراءة النون هى القراءة الأساسية عند الزمخشرى والبيضاوى، والقراءة الأصلية فى نظره، فإن هناك مايقتضى إهمالها، والتغاضى عنها.

ذلك أن إسناد اللعب إلى أخوة يوسف يتنافى مع ما قدر لهم من أعلى منصب وأرفع مقام هو منصب النبوة ، ومقام الرسالة ، ولا يمكن أن يظن بالقرآن أنه يسند الميل إلى اللهو واللعب إلى أولاد الأنبياء الذين هيئوا للنبوة ، وأعِدُّوا للرسالة ، فحينئذ يكون الصواب في قراءة هذه الكلمة (ونلعب) بالياء ، وإن كانت قراءتها بالياء لا تتسق مع (نستبق) .

هذا محصل كلامه . .

ورداً عليه أقول :

١ — إذا كان بدء تفسير الآية على قراءة يدل على أن هذه القراءة هى القراءة الأساسية في نظر المفسر كما صنع الزمخشرى والبيضاوى ، فإن كثيراً من أئمة التفسير قد بدءوا تفسير الآية (يرتع ويلعب) بالياء ، وناهيك بشيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبرى وبالعلامة القرطبي والعلامة الألوسى وغيرهم من أعيان المفسرين . . إذاً كانتا القراءتين أساسية .

٢ — تناسب قراءة النون وتناسقها مع لستبق لا يقتضى أصالة هذه القراءة ، بل قصاراه أنه يقتضى ترجيحها على قراءة الياء ؛ ولئن سلمنا أن هذا التناسق سبب يقتضى أصالتها فإن هناك سببا أقوى يقتضى أصالة قراءة الياء ، وهو ما قاله إمام المفسرين ابن جرير الطبرى : وأولى القراءتين عندى بالصواب قراءة من قرأ الحرفين كليهما بالياء لأن القوم إنما سألوا أباهم إرسال يوسف معهم ، وخدعوه عما ليوسف فى إرساله معهم من الفرح والسرور والنشاط بخروجه إلى الصحراء ، وفسحتها ولعبه هناك لا بالخبر عن أنفسهم . انتهى .

فالمقصود من الكلام : تبرير خروج يوسف واصطحابه معهم ، ببيان ما يترتب على خروجه من مصلحته الشخصية ، من تمتعه بما تشتهيه نفسه ، وتلذذه بالفواكه اليانعة ، والثمار الجنية ، والهواء الطلق كما يشاء فى خصب وسعة ، واغتباط ومسرة ، فإذا كان التناسق سببا يقتضى أصالة قراءة النون فما ذكرنا سبب أقوى يقتضى أصالة قراءة الياء ، على أننا قد بينا فى الأبحاث السابقة أنه ليس فى القراءات مطلقا قراءة أصلية ، وأخرى فرعية ، بل القراءة إن ثبتت بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد ، واشتهرت بين القراء ، وقوبلت منهم بالقبول قبلت واعتبرت قرآنا ، وإلا ردت ورفضت .

٣ — يزعم جولد زيهر أن قراءة (ونلعب) بالنون — وإن كانت هى القراءة الأساسية فى نظر العلماء الثقات ذوى المكانة فى علوم القرآن كالزمخشرى ، وهى القراءة الأصلية عنده — قد أطرحت وأهملت وتغوضى عنها ، والباعث على إهمالها والتغاضى عنها أن فيها إسناد اللعب إلى أخوة يوسف ، وهو يتنافى مع تعظيم أولاد الأنبياء الذى قدر لهم أن يصيروا أنبياء ، ولا يمكن أن ينسب إليهم القرآن الميل إلى اللعب المنافى لرفيع مقامهم ، وسامى مكانتهم .

يا سبحان الله ! . . إن القرآن الذى لا يمكن أن ينسب اللعب — فى نظر جولد زيهر — إلى إخوة يوسف قد نسب إليهم أشنع الجرائم وأبشع الجرائر .

اقرأ — إن شئت — ما حكاه الله عنهم من قولهم فى نفس السورة :

(إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ، ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ . قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ) .. آيات ٨ ، ٩ ، ١٠ .

فأنت ترى فى هذه الآيات أن القرآن قد نسب إليهم الغيرة والحسد ليوسف وأخيه .

ونسب إليهم رمى أبيهم — وهو أب ونبى ورسول — بالضلال المبين .

ونسب إليهم التآمر على قتل يوسف . . نسب إليهم هذه الجريمة النكراء ، قتل غلام برىء لاذنب له إلا أن أباه شغف به حباً وليس الغلام أجنبياً عنهم ، إنما هو أخوهم ، وهم جميعاً أبناء رجل واحد ، والقتل أكبر الكبائر بعد الشرك بالله تعالى .

نسب إليهم القرآن التآمر على قتل يوسف ، أو طرحه فى الفلاة ، تتقاسمه ضوارى الوحوش وهو أخو القتل ، وكان أرقهم شعوراً من اقترح أن يلقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة بعدا عن جريمة القتل .

نسب القرآن إليهم إعمال الحيلة والمكر والدهاء والمخادعة والتصنع .

نسب إليهم الكذب فى أحط صوره ، وأقبح مظاهره . . استمع إلى القرآن يندد عليهم بذلك كله فى نفس السورة وهى :

(وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ، قَالُوا يَـٰأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ، وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ) آيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

ألقوا إلى أبيهم هذا الخبر (فأكله ٱلذئب) إن هؤلاء لم يرحموا شيخوخة أبيهم يعقوب ، وتخطوا حدود الاتزان والحكمة ، وقطعوا حبال الإنسانية والرحمة ، وقتلوا معانى الأخوة والمحبة .

فإذا كان القرآن الكريم قد سجل عليهم هذه السلسلة من المثالب والمآسى : من حقد وحسد ، إلى تآمر على القتل أو ما هو بسبيل إليه ، إلى مكر ودهاء ومخادعة ، إلى تمويه وتضليل ، إلى افتيات وكذب ، إلى قطع لوشائج القربى ، وأواصر الرحم ، إلى قتل لروح التراحم والتعاطف ، إلى تباعد عن معانى الإنسانية كلها .

إذا كان القرآن الكريم قد سجل عليهم هذا كله ، أفلا يستطيع أن ينسب إليهم الميل إلى اللعب ؟ إن هذا لشىء عجاب ، على أن العلماء الذين يصفهم جولد زيهر بالثقة والتثبت فى علوم القرآن — وهم كذلك فى الواقع — كالزمخشرى والبيضاوى وسواهما ، قد فسروا

اللعب فى الآية بالاستباق والانتضال ونحوهما مما يتدرب به على قتال الأعداء بدليل قولهم (إنا ذهبنا نَسْتَبِق) .

وليس المراد به لعب اللهو ، وإلا لم يقرهم يعقوب عليه ، وسموه لعبا ، لأنه على صورته ، وجمهور العلماء على أنهم لم يصيروا بعد أنبياء ، وكونهم أولاد نبي لا يمنعهم من ارتكاب ما سجله القرآن عليهم ، وحسبنا دليلا على ذلك ابن نوح عليه السلام .

والحاصل أن كلتا القراءتين متواترة ، وليست إحداهما أساسية ، والأخرى غير أساسية ، وليست إحداهما أصلية والأخرى فرعية ، ولكل منهما معنى يلائم سياق الآيات وسباقها .

١٢ — قال فى صفحة ٤٤ : كذلك يروى أن تصويبا للنص أنقذ لواحد من أبناء يعقوب سمعته المهددة .

ففى الآية ٨١ من سورة يوسف قال إخوة يوسف لأبيهم بعد أن وجد يوسف السقاية التى وضعها — عن تدبير مقصود — فى رحل أخيه بنيامين :

﴿ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾

وعلى هذا يكون فى ذلك إقرار بخطيئة بنيامين ، وقد محت هذه الخشونة قراءة الكسائى :

(إنَّ ٱبْنَكَ سُرِّق) .

بضم السين وكسر الراء وتشديدها ، أى نسب إلى السرقة ، وبهذه القراءة قرأ أبو الخطاب الجراح فى إحدى ليالى رمضان ، إذ كان يؤم الخليفة المستنصر فى الصلاة ، وقد عبّر الخليفة الذى كان يهتم بالمسائل الدينية بعد الصلاة عن إعجابه بقراءته ، إذ قال : إن هذه القراءة فيها تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب . انتهى .

وأقول : يؤخذ من قوله : إن تصويبا للنص ... الخ . . أن قراءة (سَرَقَ) بفتح السين والراء مخففة خطأ وقراءة (سُرِّق) بضم السين وكسر الراء مشدودة هى الصواب ؛ لأن القراءة الأولى تفيد صراحة صدور السرقة منه ، وتحقق اتصافه بها ، ووصمه بشناعتها وهو ابن رسول ، وأما القراءة الثانية فإنها وَقَت تهمة بنيامين من جريمة السرقة ، وأفادت أنه إنما نسب إلى السرقة ورمى بها ، ولا يلزم من رميه بالسرقة صدورها منه .

وهذا من الكاتب خطأ محض ، وبعد عن الصواب لأن

قراءة (سَرَق) هي القراءة المتواترة التي أجمع القراء الأربعة عشر — ومنهم الكسائي — عليها ، وما روى عن الكسائي أنه قرأ بالقراءة الثانية فرواية عنه في منتهى الشذوذ . لأنها لم تثبت بطريق التواتر ، ولا بطريق الآحاد ، ولم تنسب لقارئ ما ، حتى إن العلامة أبا الفتح ابن جني في كتابه (المحتسب) الذي وضعه في بيان القراءات الشاذة لم يعرج عليها ، ولم يشر إليها ، فلم يقم لها علماء القراءات وزنا ، فلا تعد من القرآن الكريم .

نعم : إن القراءة الأولى أفادت صدور السرقة من بنيامين ، لأن إخوته رأوا الصواع وقد أخرج من متاعه ، ولم يعلموا أنه قد دس فيه من غير شعور أحد منهم بذلك .

ولذلك قالوا :

(وَما شَهِدْنَآ إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا)

أي وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما تيقنا من مشاهدتنا الصواع في رحله :

(وما كنا للغيب حَٰفِظِينَ)

أي وما كنا للعواقب عالمين ، فلم ندر حين أعطيناك

الموثق، أن ابنك سيسرق ، وكونه ابن نبي لا يمنع صدور هذه النقيصة منه .

ثم إن قوله تعالى :

(وما شَهِدْنَآ إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) .

لا يتأتى ولا يكون لذكره وجه إلا على القراءة المتواترة (سَرَقَ) بالبناء للفاعل، لأن قول الأخوة لأبيهم سرق حكم على ابنه بنيامين بأنه سارق ، ومثل هذا الحكم يحتاج إلى بينة ، فيكون قولهم :

(وَمَا شَهِدْنَآ إلا بِمَا عَلِمْنَا)

بمثابة البينة . . يعنون : ولم نحكم على ابنك بأنه سارق إلا بعد تيقننا من سرقته ، بمشاهدتنا الصواع في متاعه .

وأما على القراءة التي ذكرها فلا يكون لذكره وجه ، لأن الرمي بالسرقة ، والاتهام بها لا يحتاجان إلى بينة حتى تقول الأخوة :

(وَمَا شَهِدْنَآ إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا)

فكم من أبرياء اتهموا بما هم منه براء ، فإذا قال الأخوة

لأبيهم : إن ابنك رمى بالسرقة ، واتهم بها ، فإن أباهم لا يطالبهم ببينة على هذا الاتهام ، لأن مجرد الاتهام بالسرقة لا يخدش كرامة الشخص ، ولا ينزل بقدره ، بخلاف الحكم على الشخص بأنه سارق ، فلا يحكم على الشخص بمثل هذه الجريمة إلا بعد ثبوتها وقيام الدليل عليها والتأكد منها .

وأما نقله عن الخليفة المستنصر إعجابه بهذه القراءة ، وقوله فى شأنها : (إن هذه القراءة فيها تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب) فنحن نشك فى ثبوت هذا النقل ، إذ لم يروه أحد من العلماء الأثبات الذين يتحرون الدقة فيما ينقلون .

ثم إن قول الخليفة : (إن فى هذه القراءة تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب) ليس على ما ينبغى ، إذ كان الظاهر أن يقول : (إن فى هذه القراءة تنزيه أولاد الأنبياء عن الخطيئة أو عن السرقة أو نحو ذلك) لأن القراءة المتواترة فيها اسناد السرقة إلى بنيامين صراحة ، وليس فيها ما يشتم منه كذب إخوة يوسف ، لأنهم لم يسندوا السرقة إلى أخيهم بنيامين إلا بعد أن رأوا بأعينهم إخراج الصواع من رحله ، ولم يدس الصواع فى رحل بنيامين إلا فى حال غفلة منه ومن إخوته ، فهم لم يشهدوا

إلا بما عاينوا ، دون ما خفى عنهم ، فلا يتوهم فيهم الكذب أصلا من القراءة المتواترة ، حتى تكون القراءة الثانية مبرئة لهم من الكذب ، منزهة لهم من وصمته وعاره .

١٣ — قوله تعالى فى سورة التوبة آية ١١٩ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال فى صفحة ٤٥ : فعبارة الحث على الصدق هنا يبدو أنها لم تكن حاسمة على وجه كاف عند بعض الأتقياء ، فقد يكون الرجل مع الصادقين ولا يكون منهم . ولذلك آثروا قراءة :

(وَكُونُواْ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) . . . انتهى .

وأقول :

أولا : إن كلمة مع تؤذن بالاجتماع والمصاحبة ، وليس المراد الأمر بالاجتماع مع الصادقين فى زمان أو مكان بالأجسام والأشباح . وإنما المراد الأمر بالاصطحاب والمشاركة فى الأوصاف ، فيكون المراد الأمر باصطحاب الصادقين الذين صدقوا الله عز وجل

فى مقاصدهم وأقوالهم وأعمالهم ومشاركتهم فى أوصافهم، وترسم خطاهم، والسير على مناهجهم .

ولاشك أن المرء إذا صاحب طائفة ، واجتهد فى أن يحذو حذوهم ، ويقتفى أثرهم ، ويحاكيهم فى كل ما يأتون، وما يذرون فإن أخلاقهم تنتقل إليه وأوصافهم تسرى فى شعوره وأحاسيسه ، وطباعهم تجرى فى دمه وعروقه ، فلا يلبث أن يكون صورة صادقة منهم ، فإن الشأن فى النفوس البشرية أن تتأثر بمن حولها ، وتنشأ كالوسط الذى يحيط بها ، فللبيئة تأثيرها على النفوس ، وسلطانها على القلوب ، وبناء على هذا لا يكون هنا فرق ما بين التعبير بمن والتعبير بمع .

ثانيا : إن المراد . . اتقوا الله فى الدنيا بامتثال أوامره ، وأداء فرائضه ، وتجنب منهياته ، والوقوف عند حدوده ، وكونوا مع الذين صدقت نواياهم . وأعمالهم فى الجنة ، فيكون عطف (وكونوا مع الصدقين) من عطف المسبب على السبب ، أو من عطف اللازم على الملزوم .

ونظير هذه الآية سواء بسواء قول الله تعالى فى سورة النساء :

(وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰئِكَ مع ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ) .. آية ٦٩ .

ومحصل معنى الآية : اتقوا الله فى الدنيا تكونوا مع الصادقين فى الجنة .

ثالثا : هذه القراءة عريقة فى الشذوذ ، متوغلة فى الغرابة ، فلم يقرأ بها قارئ من القراء الأربعة عشر ، وهى مخالفة لجميع المصاحف العثمانية ، لأنها مجمعة على (وكونوا مع ٱلصَّٰدِقِينَ) ؛ وقد أجمع المسلمون على أن كل قراءة خالفت المصاحف العثمانية لاتعتبر قرآنا ، ولا تحل القراءة بها ، لا فى الصلاة ولا خارجها . والله تعالى أعلم .

١٤ — ذكر جولدزيهر فى صفحة ٤٦، ٤٧ أن فى القرآن نصوصا تلقيت بالقبول ، ولكنها اعتمدت على إهمال الناسخ أو سهوه أو عدم يقظته ، وأن علماء الصدر الأول لم يحاولوا إصلاح هذه النصوص ، بل آثروا فى صدق وأمانة إبقاءها على ما يعتورها من مآخذ . . ثم ساق روايات تدل على ذلك منها :

أن الزبير بن العوام سأل أبان بن عثمان بن عفان عن الآية ١٦٢ من سورة النساء وهى :

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ ﴾

حيث لا يطابق المعطوف (والمقيمين) على ما عطف عليه . . فأجابه أبان بأن هذا من خطأ الكُتَّاب .

كما روى عن عروة بن الزبير أنه سأل عن نفس هذا الموضع خالته عائشة فأجابته : يا ابن أختى هذا من عمل الكُتَّاب ، أخطئوا فى الكِتاب أى الكتابة . كذلك ورد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الآية ٢٧ من سورة النور (حتى تستأنسوا) هذا من غفلة النُّساخ ، وقرأ (حتى تستأذنوا) . انتهى

وأقول : إن هذه الروايات التى ساقها دليلا على ما زعمه روايات باطلة ، مردودة بائدة ، لم يعد أحد من المسلمين يركن إليها ، أو يعبأ بها ، وليس لها أى وزن أو اعتبار أمام تواتر المصحف .

وهى أضعف من أن تنهض فى وجه ما يبطلها من الروايات التى تلقاها المسلمون بإجماع وقبول ، وليس لذى عدل ونصفة أن يعارض

بهذه الروايات الباطلة ، والآثار الساقطة ما ثبت بالتواتر جيلا إثر جيل إلى يومنا هذا ، لأن معارض المتواتر القاطع ساقط مردود .

ذكر بعض العلماء هذه الروايات فى كتبهم بحسن قصد ، من غير تحر ولا دقة ، فاتخذها أعداء الإسلام من المارقين والمستشرقين ذريعة للطعن فى الإسلام وفى القرآن ، ولتوهين ثقة المسلمين بكتاب ربهم .

ان عثمان رضى الله عنه لما أمر بكتابة المصاحف وكتبت ، وعددها ستة أو ثمانية على اختلاف الروايات فى ذلك — عرضها على الصحابة فأقروها ، وأجمعوا على ما فيها ، والمصاحف العثمانية كلها متفقة على (والمقيمين) و (حتى تستأنسوا) فهل يعقل بعد ذلك أن يجدوا فيها تصحيفا من الكتاب ، ثم يبقوه من غير أن يتداركوه بالتصويب والإصلاح ، والقرآن عندهم أقدس ما يقدسون ؟ .

قال الإمام ابن جرير الطبرى موجها قراءة (والمقيمين) بالنصب ، ومفندا هذه الروايات : وقال بعض العلماء — وهو قول بعض نحوى الكوفة والبصرة — (والمقيمين الصلاة) من صفة الراسخين فى العلم ، ولكن الكلام لما طال ، واعترض بين الراسخين فى العلم ،

وللمقيمين الصلاة ما اعترض من الكلام فطال — نصب المقيمين على وجه المدح ، والعرب تفعل ذلك فى صفة الشىء الواحد ونعته ، إذا تطاول بمدح أو ذم ، خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه أحيانا ، ثم رجعوا بآخره إلى إعراب أوله .

وربما أجرو إعراب آخره على إعراب أوسطه ، وربما أجروا ذلك على نوع واحد من الإعراب ، واستشهدوا لقولهم ذلك بقوله تعالى فى سورة البقرة .

(وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ) . آية ١٧٧ .

ثم قال : ولو كان (والمقيمين) خطأ من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعلّمون من علّموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن ، ولأصلحوه بألسنتهم ، ولقنوه للأمة تعليما على وجه الصواب ، وفى نقل المسلمين جميعا ذلك قراءة على ما هو به فى الخط مرسوما أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه ، وأن لا صنيع فى ذلك للكاتب . انتهى .

وقال الإمام الزمخشرى فى الكشاف موجها قراءة النصب فى الآية نصب على المدح لبيان فضل الصلاة . . وهو باب واسع قد أورد عليه سيبويه أمثلة وشواهد ، ولا يلتفت إلى من زعم أن فى خط المصحف لحنا ولم يعرف مذاهب العرب ، ومالهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان ، وغاب عنه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام ، وذب المطاعن عنه من أن يتركوا فى كتاب الله تعالى ثلمة ليسدها من بعدهم ، وخرقا يرفوه من يلحق بهم .

وقال أيضا : ونحن ممن لا يصدق هذا فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . وكيف يخفى هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتى المصحف الإمام ، وهو مصحف عثمان ، وكان متقلبا فى أيدى أولئك الأعلام المحتاطين لدين الله ، المهيمنين عليه ، لا يغفلون ، عن جلائله ودقائقه ، خصوصا عن قانونه الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى أقيم عليها البناء . . هذا والله فرية مافيها مرية . . انتهى بشىء من التصرف والإيضاح .

وقال القشيرى : وهذا المسلك — وهو ادعاء لحن الكتاب —

باطل ، لأن الذين جمعوا القرآن كانوا قدوة فى اللغة فلا يظن بهم أنهم يدسون فى القرآن مالم ينزل .. انتهى .

وقال الإمام القرطبى فى آية النور : وروى عن ابن عباس — وبعض الناس يقول سعيد بن جبير (حتى تستأنسوا) خطأ أو وهم من الكاتب — إنما هو (حتى تستأذنوا) وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره ، فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها (حتى تستأنسوا) وصح الإجماع عليها من لدن مدة عثمان ، فهى التى لا يجوز خلافها ، وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب فى لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس . وقد قال تعالى فى سورة فصلت .

(لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .. آية ٤٢ .

وقال تعالى فى سورة الحجر :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) .. آية ٩ .

ومما ينفى هذا القول عن ابن عباس وغيره أن (تستأنسوا) متمكنة فى المعنى ، بينة الوجه فى كلام العرب ، وقد قال عمر للنبى صلى الله عليه وسلم : أستأنس يا رسول الله ، وعمر واقف على

باب الغرفة ، وذلك يقتضى أنه طلب الأنس به صلى الله عليه وسلم ، فكيف يُخطِّئُ ابن عباس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا . انتهى

وقال أبوحيان فى البحر : وقد روى عن ابن عباس أنه قال : (تستأنسواْ) معناه تستأذنوا ، ومن روى عن ابن عباس أنه قال : إن (تستأنسواْ) خطأ أو وهم من الكاتب ، وأنه قرأ (حتى تستأذنواْ) فهو طاعن فى الإسلام ، ملحد فى الدين ، وابن عباس برىء من هذا القول . انتهى

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه فسر (تستأنسواْ) فقال : أى تستأذنوا ممن يملك الإذن من أصحاب البيوت . انتهى

أقول : فالذى ورد عن ابن عباس إنما هو تفسير لا قراءة .

وأختم هذا الفصل بما قاله الإمام أبو بكر محمد بن بشار الأنبارى لماله من المناسبة هنا .

قال رحمه الله تعالى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن ، وعلو منزلته ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة ،

وينفون عنه قول المبطلين ، وتمويه الملحدين ، وتحريف الزائغين ، حتى ظهر فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة ، وهجم على الأمة ، بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله تعالى يؤيدها ، ويثبت أسسها ، وينمى فروعها ، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور ، ومكايد أهل العداوة والكفر ، فزعم أن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة ، وقال : لى أن أخالف مصحف عثمان . . .

ثم قال الإمام ابن الأنبارى وفى قوله تعالى .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) . .

دلالة على كفر هذا الإنسان ، لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ، وفى هذا الذى قاله توطئة الطريق لأهل الإلحاد ليدخلوا فى القرآن الحكيم ما يحلون به عرا الإسلام ، ويبطلون به الإجماع الذى به يحرس الإسلام ، وبثباته تقام الصلوات ، وتؤدى الزكوات ، وتتحرى العبادات . . انتهى

وبهذا يتبين أن للمؤلف — فيما يزعمه سلفا ، ولكنه سلف غير صالح .

قال فى صفحة ٤٨ : كانت هناك حرية مطردة إلى حد الحرية الفردية ، كأنما كان سواء لدى الناس أن يرووا النص على وجه لا يتفق بالكلية مع صورته الأصلية ، ثم ساق فى ذلك خبرا يدل على أن الخليفة عثمان قرأ آية وزاد فيها عن نص المصحف الذى أمر بكتابته ثم اعتمده .

وذلك فى آية ١٠٤ من سورة آل عمران قرأها هكذا :

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ «ويستعينون الله على ما أصابهم»

فقوله : (ويستعينون الله على ما أصابهم) زائد على المصحف العثمانى . انتهى

وأقول : لم توجد حرية مطلقة فى قراءة القرآن مطلقا فى أى عصر من العصور ، اللهم إلا عند شذوذ من الناس أباحوا لأنفسهم هذه الحرية ، ولكنهم قوبلوا من السواد الأعظم ، والكثرة الكاثرة من المسلمين بالإنكار البالغ ، والتقريع الشديد ، وأقيمت عليهم الحجة فأقلعوا ، واستتيبوا فتابوا ، وكتب محضر بتوبتهم أمام الجم الغفير ، والجمع الوفير من العلماء والقراء ،

ومن هؤلاء الشيخ ابن شنبوذ[١] والشيخ العطار[٢] .

إنما كانت — ولن تزال — هنا وهناك حرية فى القراءة ، ولكن فى إطار الأثر والرواية ، وفى نطاق النقل والمشافهة ، وفى حدود التلقى والسماع ، فلكل قارىء أن يختار من القراءات الثابتة ما يشاء ، وليس واجبا عليه أن يلتزم فى تلاوته قراءة معينة أو رواية مخصوصة .

وأما قراءة عثمان رضى الله عنه الآية المذكورة بإضافة (ويستعينون الله على ما أصابهم) إليها — إن صحت عنه الرواية بذلك — فإن كانت قراءته الآية على هذه الإضافة قبل كتابة المصاحف العثمانية فجائز ، لأن هذه القراءة من القراءات التى نزلت فى أول الأمر ، ثم نسخت بالعرضة الأخيرة ، ولعل عثمان لم يبلغه نسخها ، فظل يقرأ بها كما كان بعض الصحابة يقرأ بقراءات أبيحت القراءة بها أولا ثم نسخت ، ولكنهم لم يبلغهم نسخها

---

(١) هو محمد بن أحمد بن أيوب بن شنبوذ ، كان امام أهل العراق فى القراءة توفى سنة ٣٢٨هـ اقرأ ترجمته فى غاية النهاية (جـ٢ ص ٥٢ ــ ٥٦) .

(٢) هو أبو بكر العطار ويعتبر من مدرسة ابن شنبوذ فى اختيار القراءة توفى سنة ٣٥٤هـ .

كالقرءات التى كان يقرؤها أهل الشام وأهل العراق ، ولم يصل إليهم أنها نسخت ، وكانت مدعاة إلى فتح باب الشقاق والفرقة بين المسلمين ، وكانت سببا فى كتابة المصاحف العثمانية ، وأما إن كانت قراءته الآية بهذه الزيادة بعد كتابة المصاحف العثمانية ، وإقرار جميع الصحابة لها ، واتفاقهم عليها ، فيتعين أن تكون هذه الزيادة من قوله هو تفسيرا للآية ، وإشارة إلى من يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بد أن يتعرض للأذى ، فينبغى له أن يصبر ويطلب من الله الإعانة على تحمل ما يصيبه من المكروه ، وقد أخذ عثمان رضى الله عنه هذا المعنى من آية لقمان وهى :

(يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) . . آية ١٧ .

وهذه الآية نظير آية آل عمران ، ولا يمكن أن يكون عثمان أضاف هذه الزيادة على أنها من نفس الآية الكريمة ، إذ لا يعقل أن يأمر عثمان بحرق جميع المصاحف المخالفة لمصاحفه ، ثم يتمسك بالقراءة بما فيها من الزيادة على هذه المصاحف .

نعم : لايعقل أن يحمل عثمان المسلمين جميعا على القراءة بما فى المصاحف التى أمر بكتابتها والوقوف عندها وترك ما يخالفها ثم يأتى هو بما يخالف هذه المصاحف بزيادة أو نقص ، أو تقديم أو تأخير .

وذكر الإمام القرطبى أن هذه القراءة أسندت إلى عبدالله بن الزبير أيضا ، ثم نقل عن ابن الأنبارى أنه قال : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير ، وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين ، فألحقه بألفاظ القرآن . . ثم قال : فما يشك عاقل أن عثمان لا يعتقد هذه الزيادة من القرآن ، إذ لم يكتبها فى مصحفه الذى هو إمام المسلمين ، وإنما ذكرها واعظا بها ، ومؤكدا ما تقدمها من كلام رب العالمين . انتهى

وعلى كل حال ليست هذه القراءة فى المصاحف العثمانية ، وقد قررنا غير مرة أن كل قراءة خالفت المصحف مردودة لا تعتبر قرآنا بإجماع المسلمين .

وقال فى صفحة ٤٩ : كذلك العضو الأساسى الذى قام بتنفيذ الكتابة العثمانية يواجهنا ممثلا لقراءات تختلف عن النص الذى أثبته بأمر الخليفة . انتهى

وأقول : يشير بهذا إلى أن العضو الأساسى فى لجنة كتابة المصاحف العثمانية ، وهو زيد بن ثابت يقرأ قول الله تعالى فى سورة يونس .

(هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ) . . آية ٢٢

بفتح الياء وبعدها نون ساكنة وبعدها شين مضمومة هكذا « يَنشُرُكم » من النشر ، وهو البعث والتفريق — أى يبثكم ويفرقكم ، ويؤيد هذه القراءة :

(فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ)[١] .

(ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)[٢] . .

وقد قرأ بهذه القراءة إمام أهل الشام عبد الله بن عامر التابعى الجليل ، والإمام أبو جعفر يزيد بن القعقاع إمام أهل المدينة فى القراءة ، وهو تابعى أيضا ، وهما من القراء العشرة ، فهى قراءة متواترة لا مجال لتوهينها ، أو النيل منها ، ورسم المصاحف يحتملها ، لتجرد المصاحف من النقط والشكل ، كما أن الرسم يحتمل قراءة البـاقين (يسيركم) ، فقول جولد زيهر : تختلف عن النص الذى

---

(١) آية ١٠ من سورة الجمعة .

(١) آية ٢٠ من سورة الروم .

أثبته ، محض كذب وافتراء ، فإن احتمال الرسم لقراءة (ينشركم) كاحتماله لقراءة (يسيركم) على السواء . فليس فى إحدى القراءتين مخالفة للنص :

وقال فى صفحة (٤٩، ٥٠) ما ملخصه : (إن المعول عليه فى القراءة هو المعنى الذى يحمله النص لا اللفظ الذى يدل على قراءة معينة ، فيجوز قراءة النص بأى لفظ يطابق المعنى وإن لم يطابق النص حرفيا ، واستدل على ذلك بقراءة عبد الله بن مسعود فى الفاتحة :

(أَرْشِدنا ٱلصِّرٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) . . آية ٦ .

بدلا من :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

ثم قال : وقد نسب إلى ابن مسعود نفسه هذا القول الأساسى الدلالة : لقد سمعت القراء ، ووجدت أنهم متقاربون ، فاقرءوا كما علمتم ، فهو كقولكم : هلم وتعال . .

ثم قال : وحكى عن عبد الله بن المبارك المتوفى ١٨١ هـ الذى نال إجلالا كبيرا لورعه ، وسعة درايته بالحديث أنه كان لا يرد على أحد حرفاً إذا قرأ . . انتهى

وأقول : كل ما قاله باطل لما يأتى :

١ — اتفق علماء الإسلام على أن المعول عليه فى القرآن هو المعنى واللفظ معا ، فالمعنى للعمل به ، واللفظ للتعبد بتلاوته .

٢ — لو جاز لأحد ما أن يختار اللفظ الذى يعبر به عن المعنى القرآنى لضاعت ناحية هامة من نواحى إعجاز القرآن الكريم ، ولما كان هناك معنى للتحدى به .

٣ — لو كان ما قاله صحيحا لما كان هناك فرق ما بين القرآن والحديث القدسى ، وإجماع العلماء على أن هناك فروقا بينهما ، وأهم هذه الفروق أن القرآن الكريم لفظه ومعناه جميعا من عند الله تعالى ، نزل بهما الوحى الإلهى عن الله عز وجل ، بخلاف الحديث القدسى فإن المعنى فيه من قبل الله تعالى ، وأما اللفظ فالنبي صلى الله عليه وسلم مفوض فى اختياره .

٤ — لو صح ما قال لما كان هناك مبرر لما صنعه عثمان الخليفة من الأمر بكتابة المصاحف العثمانية ، وإحراق ما عداها .

وأما قول ابن مسعود فى الفاتحة (أرشدنا) فظاهر أنه تفسير لا قراءة ، فسّر اهدنا بأرشدنا ، كما فسّر الحسن البصرى قول الله تعالى فى سورة مريم :

(وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) .. آية ٧١ .

حيث قال : الورود الدخول ، على أن قول ابن مسعود حجة على جولد زيهر لا له ، لأن قوله : كما علّمتم .. إنما هو بضم العين وتشديد اللام لا بفتح العين وتخفيف اللام كما فهم جولد زيهر .

وقول ابن مسعود سمعت القراء ، ووجدت أنهم متقاربون ، كقولكم : هلم وتعال .. فهو حق ، لأن معظم القراءات متقاربة فى المعنى كقراءتى : (فَتَبَيَّنُوا) (فَتَثَبَّتُوا) بل كثيرا ماتكون القراءات المتعددة متفقة فى المعنى ، وإن اختلفت فى اللفظ ، كالقراءات فى الإسراء .

(وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) .. آية ٩.

و فى الكهف :

(وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) .. آية ٢ .

و فى البقرة :

(نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَيَـٰكُمْ) .. آية ٥٨ .

وفى الممتحنة :

(يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) آية ٣ .

وفى الأحزاب :

(تُظَـٰهِرُونَ) . . آية ٤ .

وفى المجادلة :

(يُظَـٰهِرُونَ) آية ٢ .

وأما القراءات التى بينها تخالف فى المعنى فمحال أن يكون بين معانيها المتخالفة تناقض أو تعارض كالقراءات فى الآيات الآتية :

فى النساء :

(أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ) . . آية ٤٣

وفى المائدة :

(أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ) . . آية ٦ .

وفى البقرة :

(يَطْهُرْنَ) آية ٢٢٢ .

وفى البقرة :

(نُنشِزُهَا) . . آية ٢٥٩ .

والحاصل أن ابن مسعود يقصد أن يقول : إن بين القراءات تقاربا فى المعنى ، فليقرأ كل منكم من هذه القراءات ما تعلمه ونقله

عن غيره بالسند الصحيح، وإلا لو كان مراده إباحة القراءة لكل إنسان حسب رغبته وميله بأى لفظ يختاره لقال : فاقرءوا كما تختارون وتميلون ، وعلى هذا يكون كلام ابن مسعود مقررا لوجوب اتباع النقل والرواية ، والاعتماد على التلقى والسماع فى القراءة ، ونافيا لإباحة القراءة بمحض الحرية والاختيار من غير نقل ولا سماع . .

وأما أن عبد الله بن المبارك كان لا يرد على أحد حرفا إذا قرأ فمعناه أنه لا يعترض على القارىء إذا قرأ بأى حرف من الأحرف التى ورد الإذن من الشارع بالقراءة بها ، ويتعين حمل كلامه على هذا المعنى جمعا بين الأدلة ، وتوفيقا بين النصوص ، إذ لا يدور بخلد عاقل أن ابن المبارك فى ورعه وتنسكه ، وسعة اطلاعه فى علم الحديث يبيح القراءة بمحض الميل والاختيار ، من غير اعتماد على نقل وإسناد ، مخالفا فى ذلك الثقات الأثبات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كبار التابعين ، ومن أئمة الأداء ، وشيوخ الإقراء .

قال فى صفحة ٥٠ ، ٥١ : إن حرية القراءة ثبتت عن الرسول نفسه ، فإن هناك قراءات مخالفة للنص المشهور ، ذكرت على أنها قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدعو إلى أنه لا حرج

فى رواية كلام الله تعالى على وجه آخر غير الوجه الذى بلّغه الرسول فى الأصل ثم ساق لذلك مثالين :

المثال الأول : آية ١٢٨ من سورة التوبة وهى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

بضم الفاء فى القراءة المقبولة ، وذكرت قراءة بفتح الفاء على أنها قراءة رسول الله وفاطمة وعائشة .

المثال الثانى : أن عبد الله بن أبى سرح أخا عثمان من الرضاعة الذى دخل فى الإسلام قبل فتح مكة ثم ارتد بعد وفاة الرسول ، ثم احتل ثانيا منصبا بارزا فى الدولة الإسلامية على عهد عثمان ، كان من كتاب الوحى عند الرسول ، وقد روى أنه فى حديثه عن عمله هذا افتخر أمام القرشيين بما كان يتمتع به من النفوذ عند الرسول ، فقال : إنه كان يحوّل النبى كما يريد . . وقال كان يملى علىّ مثلا . عزيز حكيم . . فأقول : هل أكتب عليم حكيم . . فيقول النبى : نعم كل صواب . . انتهى .

وأقول : لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يوما من الأيام حرا فى قراءة القرآن ، ولم يكن ليعدل عن القراءة التى تلقاها عن الله تعالى

بوساطة جبريل أمين الوحى إلى قراءة يختارها من تلقاء نفسه ، لأن وظيفته إنما هى تبليغ ما يوحى به إليه فحسب ، وليس له أن يحيد عنه — بزيادة أو نقص ، أو تبديل أو تغيير — قيد شعرة ، وقد سجل الله عليه ذلك فى قوله تعالى فى سورة يونس .

(قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاىِٕ نَفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) . . آية ١٥ .

ومن الخطأ البين أن قراءة معينة تنسب إلى الرسول ، ويقال هذه قراءة الرسول ، لأن هذا القول يفيد بمفهومه أن غيرها من القراءات لم يقرأ به ، ولم ينقل عنه مع أن جميع القراءات — سواء كانت متواترة أو مشهورة أو غير ذلك ثابتة عن الرسول ، وقرأ بها ، ونقلت عنه .

فالقراءات جميعها بالنسبة إليه سواء ، هو مصدرها ، وهو منبعها ، عنه أخذت ، وإليه أسندت ، وإذا صح أن يسند إلى أم المؤمنين عائشة أو غيرها قراءة مخصوصة باعتبار ملازمتها لها ، أو كثرة قراءتها بها ، فلا يصح أن تسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة مّا لما يترتب على ذلك من الفساد الذى ذكرناه ، ولم يثبت

فى حديث صحيح ولا ضعيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يلتزم فى تلاوة القرآن قراءة معينة ، أو يكثر القراءة بها .

وقراءة (أنفَسكم) بفتح الفاء — وإن كان معناها صحيحاً — لم تثبت بطريق التواتر ، ولا بطريق الآحاد المشهور ، ولذلك لم يقرأ بها أحد من القراء العشرة .

وأما قصة عبد الله بن أبى سرح فحسبنا فى رفضها واطّراحها ونبذها أنها رواية مرتد لا يعبأ به ، ولا يقام له ولا لروايته أى وزن أو اعتبار .

ذكر فى صفحة ٥٢ فى معرض الحرية فى القراءة القصة التالية :

قال : فنى وصف نعيم الجنة الآية ٢٦ من سورة الواقعة ، ذكر أصحاب اليمين ينعمون فى :

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾

وهنا روى عن على أنه قال : ما شأن الطلح ؟ إنما هو (وطلع منضود) ثم قرأ من سورة الشعراء آية ١٤٨ :

﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾

فقال له الحاضرون : هل تريد أن تحولها إلى هذا المعنى ،
فقال علىّ : إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يُحوَّل .

وهذا من تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٩٣ :

وأقول : هذه القصة إن دلت على شىء فإنما تدل على أن عليا رضى الله عنه ، وهو مَن هو أسبقية فى الإسلام ، وصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلما بمعانى القرآن ومراميه وأسراره ، وغيرة على كتاب الله تعالى — لم تسمح له نفسه أن يغير فى القرآن حرفا بآخر ، بلهَ كلمة أو جملة بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، فعلى الرغم من أن قراءة (وطلح) بالحاء لم تتجه فى نظره تحرج من إبدال العين بالحاء مع أن قراءة الكلمة بالعين تعضدها آية الشعراء :

(وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ) .

والدليل على تحرجه قوله : إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول .

فهذا من أبين البراهين ، وأوضح الحجج على أن القراءة مردها التلقى والسماع ، وليس للحرية ولا الاختيار مدخل فيها ، فالقصة حجة على الكاتب وليست حجة له .

قال فى صفحة ٥٣ : وهو ـ حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف ـ فى معناه الصحيح الذى لم يقف علماء الدين الإسلاميون أنفسهم موقفاً واضحاً منه ـ ذكر في تفسيره ٣٥ وجهاً ـ لا علاقة له فى الأصل بتاتاً باختلاف القراءات .

وأقول : أعتقد أن أحداً يقرأ هـذه العبارة ، « والحديث لاعلاقة له فى الأصل بتاتاً باختلاف القراءات » ثم لاتأخذه الدهشة ، ولا يستولى على قلبه العجب ، فإن هذا الحديث هو الأصل والعمدة فى بيان إنزال القرآن على هذه القراءات المختلفة ، وهذا إجماع من علماء الإسلام ، لا خلاف بينهم في ذلك ، فـكيف لا يكون له علاقة باختلاف القراءات ؟ سبحانك ربى هذا بهتان عظيم .

ثم إن هذا القول يتناقض تمام التناقض مع قوله فى أول صفحة٥٣ : إن هذا الحديث صار نقطة البدء وحجر الأساس لإحتاق علم القراءات الذى ازدهر فيما بعد . . ومع قوله فى صفحة ٥٤ : وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أصدر هذا المبدأ الأساسى (أنزل القرآن على سبعة أحرف) حينما عرضت عليه اختلافات فى قراءة نص القرآن ، فقوله : إن هـذا الحديث لا علاقة له فى الأصل بتاتاً باختلاف

القراءات ، قد توسط بين قولين من كلامه كل واحد منهما ينقضه ، ويأتى على بنيانه من القواعد .

قال فى صفحة ٥٤ ما نصه : وليس مفترضاً ـ فيما يظهر ـ أن يكون القصد إلى تحديد حسابى ثابت ، مفهوماً من عدد السبعة فى هذا الحديث الذى روى فى مجاميع السُّنَّة المعتد بها ، على الرغم من أن ثقة مثل أبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية دمغه بأنه شاذ غير مسند ، حتى مع حمله على التفسير السالف ، بل المراد من هذا العدد ـ حتى فى حالة اتخاذه دليلا على فروق النص (اختلاف القراءات) هو إفادة معنى الكثرة ، فالقرآن نزل على أحرف كثيرة العدد ، وكل منها يمثل على قدم المساواة كلام الله المعجز . انتهى .

وأقول : تضمنت هذه المقالة دعويين :

الدعوى الأولى : ليس المراد بالعدد فى الحديث حقيقته ـ وإنما المراد به إفادة معنى الكثرة ، فمعنى (أُنزل القرآن على سبعة أحرف) على أوجه كثيرة ، وقراءات متعددة .

وهـذا المعنى قد سبقه إليه بعض العلماء ، فليس بجديد ،

قال في النشر[1] : وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السعة والتيسير ، وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب ، من حيث إن الله تعالى أذن لهم فى ذلك ، والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر ، وهذا جيد لولا أن الحديث يأباه ، فإنه ثبت فى الحديث من غير وجه أنه لما أتاه جبريل بحرف واحد ، قال له ميكائيل : استزده . . وأنه سأل الله تعالى التهوين على أمته ، فأتاه على حرفين فأمره ميكائيل بالاستزادة ، وسأل الله التخفيف ، فأتاه بثلاثة ، ولم يزل كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، وفى حديث أبى بكرة فنظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة ، فدل ذلك على إرادة حقيقة العدد وانحصاره . انتهى .

وبهذا يعلم أن ما ذهب إليه جولد زيهر رأى قديم عند العلماء ، تأباه الأحاديث الصحيحة ، والآثار القوية .

الدعوى الثانية : أن أبا عبيد القاسم بن سلام قد دمغ الحديث بأنه شاذ غير مسند ، وهى دعوى باطلة ، وفرية ظاهرة ،

(١) للمحقق ابن الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هجرية .

فإن أبا عبيد لم يقل بصحة هذا الحديث وشهرته فحسب ، بل صرح بتواتره ، كما نقله عنه جميع العلماء . . منهم : الحافظ ابن حَجَر في الفتح ، والمحقق ابن الجزرى فى النشر ، والسيوطى فى الاتقان ، وتدريب الراوى شرح تقريب النواوى فى مصطلح الحديث ، وغير هؤلاء العلماء الأعلام .

قال فى صفحة ٦٢ : والمتكلمون على وجه الخصوص هم الذين لم يرتضوا الحد من حريتهم تجاه النص القرآنى المأثور وهم يقولون : إنه يسوغ إعمال الرأى والاجتهاد فى إثبات قراءات وأوجه وأحرف، إذا كانت الأوجه صواباً فى العربية ، وإن لم يثبت أن النبى ﷺ قرأ بها . انتهى .

وأقول : لم يكن جولد زيهر أميناً فى النقل ولا متحرياً للحق ، حيث إن ظاهر عبارته يفيد أن ذلك رأى جميع المتكلمين ، وليس كذلك ، إنما هو رأى طائفة قليلة منهم ، وأما جمهورهم ، وأهل الحق منهم فإنهم يرفضون هذا الرأى وينكرونه ويخطئون من يقول به ، ويقولون — كما يقول غيرهم من سائر العلماء — إن القراءة لايعتد بها ، ولا تكون قرآناً مهما بلغت من الشهرة والصواب فى العربية إلا إذا ثبت بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد المشهور أن الرسول

صلى الله عليه وسلم قرأ بها ، فهم — كسائر الطوائف — يستمسكون بعنصر الرواية ، ويعتمدون على النقل والأثر ، والتلقى والسماع .

قال فى صفحة ٦٥ ، ٦٦ : ما محصله : كان علماء الدين يبغضون تدخل علماء العربية فى نصوص القرآن الكريم على الرغم من أن علماء العربية كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى تسوية مشاكل القرآن اللغوية ، دون أن يتناولوا النص المأثور بشىء من التغيير ، بيد أنهم كانوا يُعَدُّون على وجه العموم غير مسموح لهم أن يتناولوا النص المقدس من وجهة نظرهم ، كما يتناوله القراء المختصون .

نعم : فى أزمنة أقدم من ذلك حصل الاعتراف أيضاً بقراءات اقتضتها ضرورة المطابقة بين قواعد النحو الدقيقة ، وبين صيغ لفظية ، وتراكيب جُمليّه تخالفها ، من ذلك مثلا ما جاء فى الآية ٩ من سورة الحجرات :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾

حيث يعود ضمير جمع المذكر (ٱقتتلوا) على مثنى المؤنث (طائفتان) فقد أراد بعض القراء مطابقة قواعد النحو ، فقرأ أحدهم ،

هو ابن أبى عبلة — (اقتتلتا) واكتفى آخر ، هو عبيد بن عمير ، بقراءة (اقتتلا) انتهى .

والذى أريد توجيه نظر القارىء إليه من هذه المقالة هو قوله : حصل الاعتراف أيضاً بقراءات اقتضتها ضرورة المطابقة بين قواعد النحو الدقيقة ، وبين صيغ لفظية ، وتراكيب جملية تخالفها . ثم تمثيله بالآية ٩ من سورة الحجرات ، فإن هذا القول يفيد فى صراحة أن الآية الكريمة تخالف قواعد النحو الدقيقة لأن الواو فى (اقتتلوا) — وهى موضوعة لجمع الذكور الغائبين — قد عادت على مثنى وهو طائفتان ، والقواعد النحوية تقتضى أن يقال (اقتتلتا) بإسناد الفعل إلى ضمير التثنية ليعود ضمير التثنية إلى المثنى وهو طائفتان ، أو يقال (اقتتلا) ، فكان من الضرورى اختراع قراءات بها تتحقق المطابقة بين القواعد النحوية ، والصيغ القرآنية ، فاخترع ابن أبى عبلة هذه القراءة (اقتتلتا) وقد روعى فى هذه القراءة لفظ (طائفتان) .

واخترع زيد بن على ، وعبيد ابن عمير هذه القراءة (اقتتلا) وقد روعى فى هذه القراءة معنى (طائفتان) إذ أريد بالطائفة الفريق ، فكأنه قيل : (وإن فريقان من المؤمنين اقتتلا) . هذا مفاد كلام جولد زيهر .

وأقول : قلنا غير مرة إن القواعد النحوية هى التى تخضع للقراءة ، ولا تخضع القراءة للقواعد النحوية ، لأن القرآن بجميع قراءاته ورواياته نزل على أفصح لغات العرب ، وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً ، والقواعد النحوية مستنبطة من كلام العرب منثوره ومنظومه ، كما أنها مستنبطة من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية المطهرة ، فالكلام العربى وفى مقدمته القرآن والسنة مصدر هذه القواعد ، منه نشأت ، وعنه أخذت ، فهو الأصل ، وهى الفرع ، ولا يعترض بالفرع على الأصل .

وقد اعترف جولد زيهر بهذه الحقيقة التى ذكرناها فقد قال فى صفحة ٦٨ ما نصه : فالقرآن يقدم المقياس المصحح للاستعمال العربى الصحيح لا العكس .

فهذا اعتراف منه بخضوع الأساليب العربية للقرآن لا خضوع القرآن للأساليب العربية .

وأما الآية الكريمة ، فقد جرت على أنصح الأساليب ، وأبلغ التراكيب ، ذلك أن (طائفتان) مثنى طائفة ، وبدهى ، أن الطائفة الواحدة تجمع أفراداً كثيرة ، فحينئذ يكون طائفتان فى معنى القوم والناس ، فأتى بواو الجمع فى (آقتتلوا) باعتبار معنى (طائفتان) .

ومع أن القرآن الكريم قد راعى معنى (طائفتان) فأتى بواو الجمع فى (آقتتلوا) قد راعى اللفظ فأتى بألف التثنية فى قوله تعالى : (فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) . .

والسر فى مراعاة المعنى أولا ، واللفظ ثانياً أن الطائفتين فى حال القتال تكون كل طائفة مختلطة بالأخرى بحيث يعسر التمييز بينهما ، وأما فى حال الصلح ، فتكون كل طائفة متميزة عن الأخرى ، منعزلة عنها فمن أجل ذلك جمع ضميرهما فى حال القتال وثناه فى حال تعلق الصلح بهما .

فأنت ترى من هذا أن الآية الكريمة قد أوفت على الغاية في روعة الأسلوب ، ورصانة التركيب ، وجلال المعنى ، وسمو المغـزى .

كلمة ختاميـــة

وهنا ينتهى ما قصدنا إليه من الرد على جولد زيهر ، وتفنيد مزاعمه فيما كتبه عن القراءات فى كتابه « مذاهب التفسير الإسلامى» وفيما كتبناه بلاغ لكل من يريد الحق ، ويسعى إلى الصواب ، فقد تبينت — والحمد لله — فيما كتبناه نوايا هذا الكاتب الخبيثة ، وأفكاره السخيفة ، وآراؤه الشاذة ، ومذاهبه الآفنة ، وأصبح ذلك الكتاب الذى عنينا بالرد عليه ، بفضل ما هدانا الله إليه ، من الدلائل التى تدفعه ، والبراهين التى تدحضه — أصبح هراء وزيفاً لا يفيد ، وباطلا من القول لا يبدئ ولا يعيد ، وكذلك كل ما لا أساس له ينهار بنيانه وتتداعى أركانه : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) . .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) . .

(يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظلمين ويفعل الله ما يشاء) .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

فهـــرس

من منشورات (الدار)بالمدينة المنورة :

١ ـ كتاب الصفات ٠

للحافظ على بن عمر الدارقطنى ، بتحقيق الشـيخ عبد الله الغنيمان رئيس قسم العقيـدة بالجامعة الاسـلامية بالمدينة المنورة ٠

٢ ـ مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة ٠

للحافظ جلال الدين السيوطى ٠

٣ ـ التجويد الميسر ، قواعد قراءة القرآن الكريم ٠

فى أسلوب ميسر يتيح لكل مسلم فهم هذا الفن وتطبيقه وقراءة القرآن بالطريقة النبوية ٠

وقد سجل هذا الكتاب على أشرطة كاسيت بصوت المؤلف ٠